



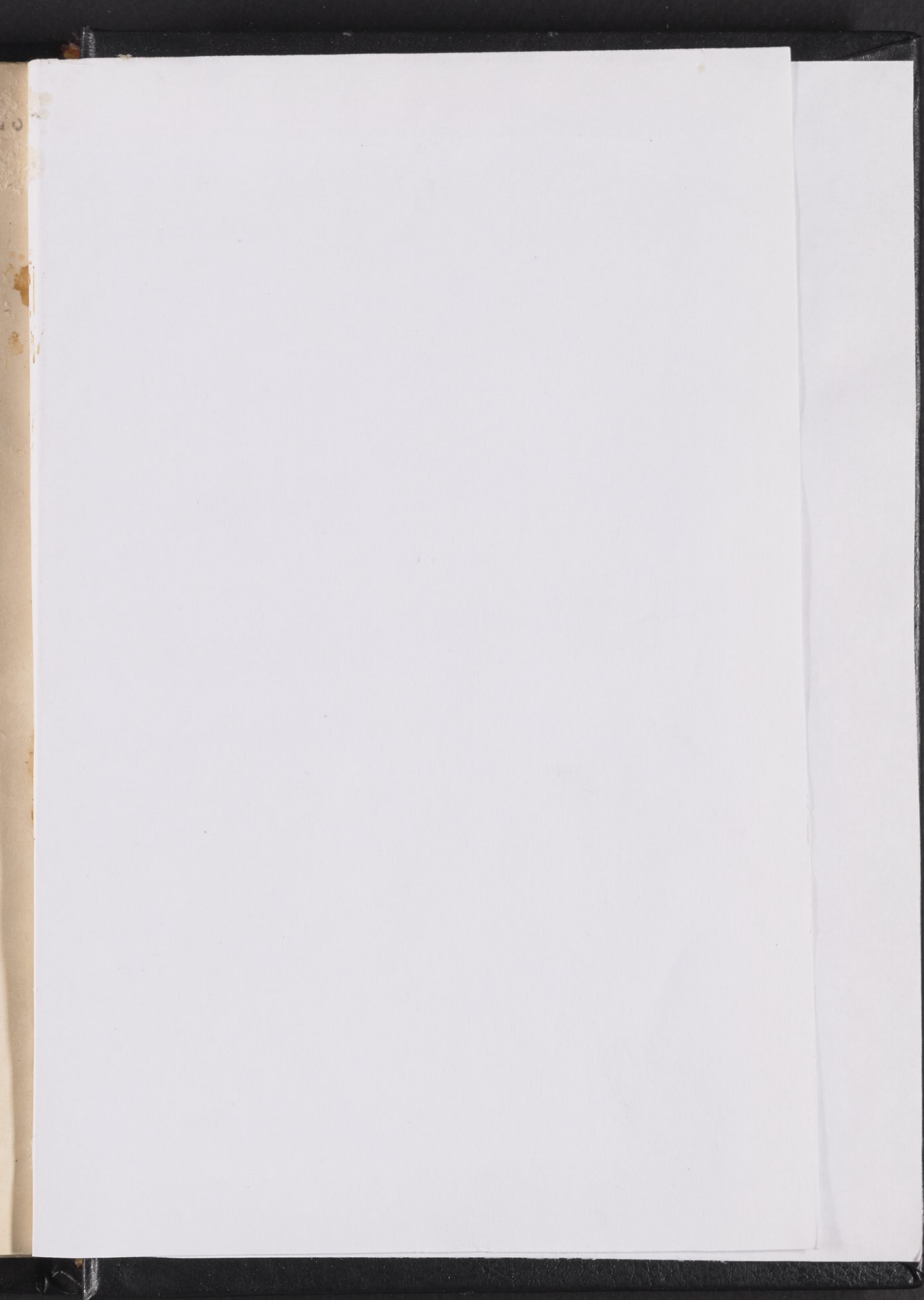
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01816 2952







40-B5001
P. 26-6-10

لجنة البكائن العسكريين

أبطال الشرق

صلاح الدين الأيوبي - محمد فريد - سعد غزل

DT

تأليف

محمد عطيّة الأبراشي

خريج جامعتي إكستر ولندن
والمرقب العام المساعد بوزارة المعارف

76

I3

1947

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

مكتبة جامعة القاهرة

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
22/10/19

كتاب القانون

920
ab/84 k

950
1-51

كتاب القانون

27619

كتاب القانون

كتاب القانون

27619 - 27619

كتاب القانون

كتاب القانون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

القصة من الفنون الأدبية التي كتب لها الذيوع والانتشار في الآداب الحديثة في الشرق والغرب ؛ لأنها أداة مرنة لنشر المذاهب والآراء . وقد تفنن فيها كتاب هذا العصر ، فاتخذوها دعامة للتحليل النفسي ، وسبيلا لإذاعة مبادئهم في السياسة والاجتماع ، والاقتصاد والوطنية ، ومن أجل ذلك كان لها نصيب كبير في تربية الشعب ، وحل كثير من مشكلات المجتمع ؛ إذ هي تمس العواطف ، وتثير كوامن الإحساسات ، وتهيج خلدات النفوس ، بما فيها من ضروب الإيحاء ، وأنواع التجارب ، والمثل العالية ، فلا ريب إذا كانت خير وسيلة لبث روح الفضيلة ، وتقويم الخلق المعوج ، ونشر الثقافة ، وتغذية الروح الوطني .

وخلق بالمربين وأصحاب المبادئ في هذا الشرق العربي — أن يتخذوا القصة مجالا لإصلاح النفوس وتهذيبها وتمقيفها ؛ لذلك وجهت عنايتي إلى هذا الفن الأدبي ، فأخرجت مجموعات

قصصية مختلفة للتربية والتهديب ، وتعليم الناشئين اللغة الصحيحة
الفصيحة . وكنت — وما أزال — أرى أن أبناءنا من شبان
وأطفال ما زالوا في حاجة إلى المزيد من هذا الفن الأدبي الرفيع ،
وأن القصة الشائقة التي تعالج سير العظماء والقادة والأبطال ، الذين
صنعوا التاريخ ، ونهضوا ببلادهم ، وكانوا مثلاً علياً للوطنية
الصادقة ، والشجاعة النادرة ، والجهاد الظافر ، والتضحية الغالية ،
وإنكار الذات — لم تقدم إليهم التقديم الكافي ، فوضعت نصب
عيني هذه الغاية ، وقدمت لأبناء وطني مجموعة قصصية في البطولة
والوطنية ، راعيت فيها أن تكون سيرة صادقة وتصويراً حياً
لثلاثة من الأبطال ، الذين رفعوا منار الإنسانية ، وخدموا
أوطانهم ، ودافعوا عنها دفاعاً مجيداً ، وهم صلاح الدين الأيوبي ،
ومحمد فريد ، وسعد زغلول .

ومما لا شك فيه أن تربية الأطفال والشبان والشابات على
المبادئ الوطنية الصحيحة ، وبث روح الشجاعة في نفوسهم ،
وتعويدهم حب التضحية في سبيل الوطن ، والقيام بالواجب —
لهي من الأمور التي تتجلى في حياة هؤلاء الأبطال ، فهم القدوة
الحسنة لأبنائنا ، والغذاء الروحي الذي ينمي في نفوسهم كل خلق
نبيل ، وعمل جليل .

وهأنذا اليوم أقدم تلك المجموعة الوطنية ، من قصص
أبطال الشرق في ثوب جديد ، وأسلوب سهل محبوب إلى النفوس ،
وقد عنيت بأن أعرضها عرضاً شائقاً جذاباً من غير تكلف
ولا تأنيق . والله أسأل أن ينفع بها أبناء العروبة من أطفال
وشبان ؛ ليقوموا بالواجب عليهم نحو الوطن والبلاد العربية ،
إنه سميع مجيب ؟

جزيرة الروضة { ١٣٦٦ هـ
١٩٤٧ م

محمد عظيم البراشي

صلاح الدين الأيوبي

في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي هجمت الجيوش الصليبية على البلاد الإسلامية محاولة انتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين . وقد استطاع الصليبيون بفضل كثرتهم ، وتفكك الروابط بين ملوك المسلمين انتزاع بلاد الشام — ومن بينها بيت المقدس — من أيدي المسلمين ، وتكوين عدة إمارات يحكمها أمراء مسيحيون .

وعندما فتح الصليبيون بيت المقدس أتوا من الفطائع مع المسلمين ما تقشعر له الأبدان ؛ فقتلوا آلافاً من الرجال ، وسبوا النساء والأطفال ، وسلبوا الأموال ، واغتصبوا ما في الدور ، وحولوا المساجد إلى كنائس وبيع ، وخرّبوا بيت المقدس ، وأحرقوا القصور .

عندئذ هاجت خواطر المسلمين ، وقاموا بعدة حملات لإخراج المسيحيين من بيت المقدس ، وبلاد الشام ، ولكنهم لم يفلحوا ؛ لأن الجيوش الصليبية كانت تفوقهم في العدد والعدد ، بفضل تدفق المتطوعين واخامرين من جميع سكان أوروبا .

في تلك الأثناء كانت أراضي دجلة والفرات خاضعة للحكم الإسلامي ، وكان يحكم بلاد الموصل ، وجزءاً من آسيا الصغرى أمير مسلم يدعى نور الدين . أما مصر فكانت تحكمها أسرة الفاطميين ، وكانت قد بلغت من الضعف مبلغاً يرثى له ، حتى إن الجيوش الصليبية فكرت في غزوها والاستيلاء عليها .

وعند منابع الفرات كانت تقطن قبائل قوية الشكيمة ، شديدة البأس ، اعتنقت الإسلام من زمن بعيد ، وجاهدت في سبيل الله جهاداً صادقاً ؛ تلك القبائل هي قبائل الأكراد .

بعد أن استولى الصليبيون على بيت المقدس بنصف قرن من الزمان ، ولد لرجل من هذه القبائل ولد أسماه (صلاح الدين) ، وقد اضطرت الأحوال السياسية ذلك الوالد أن يرحل عن بلاده لغضب الوالى عليه ؛ فغادر مسقط رأسه ، وجعل يتنقل في البلاد حتى استقر به النوى في مدينة بعلبك ؛ وهي مدينة عظيمة على ربوة مرتفعة ، تحيط بها المروج الخضراء ، وتكتنفها الحدائق والبساتين ؛ ذات الفواكه اللذيذة ، والثمار الطيبة ؛ وكانت منازلها غاية في الجمال والروعة تدل على رقي أهلها وحضارتهم .

نشأ صلاح الدين في تلك المدينة ينعم بخيراتها ، ويمتع

طرفه بجمالها . ولما شب أرسله والده إلى مدرسة المدينة ، فتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، وكان والده خلال ذلك يمرنه على استعمال أدوات الحرب ، وطرق القتال كعادة المسلمين في ذلك الوقت ؛ فأظهر صلاح الدين مهارة فائقة أدهشت والده . وكان إلى جانب هذا دمث الخلق ، نبيل النفس ، رقيق القلب ، مرهف الحس .

كان يرتاد مجالس عظماء المدينة ، ويستمع إلى أحاديثهم عن الفظائع التي يأتونها الصليبيون ، وما يقاسيه المسلمون على أيديهم من النذل والهوان ، فكانت تلك الأحاديث تحز في قلب الفتى (صلاح الدين) ، ويود لو تتيح له الأيام الفرصة للانتقام من أولئك الأعداء الذين لا يقدرُونَ الإنسانية قدرها ، ولا تجد الرحمة إلى قلوبهم طريقا . وكان يسمع إلى جانب ذلك سير أبطال الحروب من المسلمين الذين يجاهدون في سبيل الله ، ويعملون لنصرة دينه الخفيف ، وإنقاذ بلادهم من أيدي أولئك الأعداء ، فكانت تتوق نفس صلاح الدين لأن يكون أحد أولئك الأبطال الذين يتحدث الناس عنهم في إجلال واحترام ، ويروون أخبار انتصاراتهم ، وأحاديث بطولتهم .

كان لصلاح الدين عم يدعى (أسد الدين شيركوه)

ارتقى بفضل مهارته وشجاعته إلى مرتبة القواد العظام في جيش
الأمير نور الدين الذي كان يحكم بلاد الموصل ، وجزءاً من
أرض الشام والجزيرة والأناضول . وصادف أن طلب الخليفة
الفاطمي بمصر المعونة من نور الدين لصد هجمات المسيحيين عن
مصر ، فأرسل قائده القدير (أسد الدين شيركوه) على رأس
جيش عظيم إلى البلاد المصرية ؛ لتخليصها من الصليبيين الذين
أغاروا عليها بسبب خيانة بعض الوزراء .

وهنا سنحت الفرصة لصالح الدين ، وهيات له المقادير
ما كانت تتوق إليه نفسه ؛ حيث أخذه عمه معه إلى مصر .
فأظهر صلاح الدين من ضروب البسالة والشجاعة في قتال الصليبيين
ما أدهش القواد . وأخيراً تم الظفر لجيش (شيركوه) ، فعينه
الخليفة الفاطمي وزيراً له . فأقام هو وابن أخيه في قصر جميل
بالقاهرة تحيط به الحدائق الفناء ، ذات النخيل والأعنان ،
وتجرى إليه الجداول بماء النيل العذب .

أخذ صلاح الدين يتقرب من الشعب المصري ، ويختلط
بجميع طبقاته ، وتفقد أحوال الأهلين ، وبحث ودقق في كل
ما رأى وسمع ، فأعجب به المصريون وأحبوه ، وتمنوا أن
لو يأتي ذلك اليوم الذي يتولى فيه أمرهم لينقذهم مما يرزحون

تحت أعبائه من ظلم الحكام ، وجور الوزراء ، واستبداد
الجنود . وقد كان لهم ما تمنوا ؛ فبعد أعوام خمسة مات (شركوه) ،
فحزن عليه صلاح الدين حزناً عميقاً ، بيد أن ذلك الحزن خفف
من وطأته اختياره وزيراً للخليفة الفاطمي بدلاً من عمه .



صلاح الدين الأيوبي

- خبر صلاح الدين شئون البلاد حينما كان مساعداً لعمه ،
فعرف ما آلت إليه مصر من التأخر بسبب جور الحكام ، وقسوة

الجند ، وانتشار الرشوة ، وعدم العناية بوسائل الري ، ووجود طوائف من اللصوص والمجرمين يعيشون في الأرض فساداً ، لا يخافون سطوة أمير ، ولا بطش حاكم .

عرف صلاح الدين هذا كله فجعل نصب عينيه القضاء على المظالم ؛ فرد الحقوق إلى ذويها ، ومنع الرشوة ، وعاقب كل من يرتكبها أشد عقاب ، وضرب على أيدي اللصوص ، وعنى بالرى ، ونظم جباية الخراج ، وتفقد أحوال الناس ، وفتح أبوابه لطلاب الحاجات ، وجلس بنفسه للنظر في المظالم ، وأعد جيشاً قويا هابه الصليبيون ، وخشوا بأسه . فأحبه المصريون ، وأخلصوا له الإخلاص كله .

ولما مات الخليفة الفاطمي أعلن صلاح الدين للناس انتهاء الحكم الفاطمي للبلاد ، ونصب نفسه حاكماً عليها من قبل سيده (نور الدين) الذي كان قد زاد نفوذه ، وقوى سلطانه بفضل انتصاراته المتوالية على جيوش الصليبيين .

نزل صلاح الدين قصر الخلافة بالقاهرة ، وأقام فيه ، واتخذ لنفسه الحرس من جنده المخلصين له ، وتقاطرت وفود البلاد عليه تهنئته ، وتدعو له بدوام الملك والسلطان ، وترجو أن يكون عصره عصر سعادة وهناءة للجميع . سر صلاح الدين أن يرى تعلق الشعب به ، وحببه له ، فأعلن أنه لن يسير في حكمه بغير العدل ،

وأنه لن يحتجب عن طالب حاجة ، ولن يترك مظلوماً حتى يأخذ بحقه من ظالمه ، ولن يدع عابثاً يتماذى في بغيه وعدوانه .

حينما اطمأن صلاح الدين على استتباب الأمر داخل البلاد ، أخذ يفكر في تنفيذ ما كانت تتوق إليه نفسه منذ الصغر ؛ من طرد الصليبيين من بيت المقدس ، وتخليص المسلمين من شرهم وأذاهم . فأعد جيشاً عظيماً كامل العدة ، كثير العدد ، وقاده بنفسه بعد أن بث روح الشجاعة والجرأة والإقدام في نفوس جنده ، وذكرهم بأن من يموت منهم سيكون من الشهداء الذين يدخلهم الله جناته الواسعة التي أعدها لعباده المتقين .

سار الجيش في حماسة وشجاعة ، وقطع صحراء سيناء في أيام القبط من غير أن تهن قوته ، أو تفتر عزيمته ، أو يصيبه كلال ، حتى وصل الجمع إلى دمشق — وكانت خاضعة للصليبيين — ففتحوها بعد قتال لم يدم طويلاً . ثم تقدم إلى البلاد الأخرى يفتحها ، وكلما اقترب من بلد أو حصن دب الذعر في نفوس حاميتها ، وولت الأدبار هاربة من وجه صلاح الدين ، وجيشه الباسل . وأخيراً توجه إلى بيت المقدس ، وحاصره حصاراً شديداً ، وأبدى من ضروب البسالة ما أدهش قواد الصليبيين . ولما رأوا أنه لا قبل لهم بدفع صلاح الدين ورده عن دخول بيت المقدس سلموا له المدينة .

دخل جيش صلاح الدين بيت المقدس ظافراً منتصراً ، ولكنه لم يسفك دمًا ، ولم يقتل إنساناً ، ولم يأسر أحداً ، ولم تنهب جيوشه بيتاً ؛ فقد آمن الجميع على أموالهم وأمتعتهم ، وسأوى بين الكل في الحقوق والواجبات ؛ فدهش الصليبيون لعدله وصفحه . وبينما هو سائر في طرقات بيت المقدس إذ تقدم شيخ مسيحي ، يعلق صليباً ذهبياً في عنقه ، وقال له :

« أيها الملك لقد كُتِبَ لك الظفر على أعدائك ، فلم لم تنتقم منهم ، وأنت تعلم أنهم أتوا من الفطائع حينما فتحوا بيت المقدس ما ترتعد له الفرائص رعباً وفرعاً ؟ ! »

فقال له صلاح الدين : « يا هذا يمنعني من ذلك ديني وضميري » . فقال له الشيخ : « وهل دينكم يمنعكم من الانتقام من قوم بدءوكم بالعداوة ، وساموا قومكم الخسف والعذاب ؟ ! » فقال له : « نعم إن ديننا يمنعنا من أن نجاري خصومنا في عنادهم ، ويأمرنا بأن نكون أوفياء بعهودنا ، وأن نصفح عن أساء ، ونتجاوز عن أئيم عند المقدرة » .

فقال الشيخ : « لنعم الدين دينكم ، وإنني أحمد الله على أن هداني إلى ما فيه خيرى في أخريات أيامى » . ثم سأل : « وماذا يفعل من يريد الدخول في دينكم ؟ »

فقال له صلاح الدين : « يؤمن بوحداية الله ، وصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويفعل ما أمر به الله ، ويجتنب ما نهى عنه » . عند ذلك أسلم الشيخ ، وحسن إسلامه ، واقتدى به كثير من بنى قومه .

ولما اقترب صلاح الدين الأيوبي من مسجد بيت المقدس الذي حوَّله الصليبيون إلى كنيسة حينما فتحوا بيت المقدس ، أشار إلى رجاله بأن يُنزلوا الصليب الموضوع فوق أبرز جزء فيه ؛ ففعلوا بين تهليل القوم واستبشارهم . ثم دعا لصلاة الظهر في هذا المسجد ، فاجتمع المسلمون ، وكلهم فرح مسرور بهذا الظفر الذي علت به كلمة الله ، وأعاد إلى المسلمين سابق عزهم وهيبتهم .

رغب بعض الصليبيين في الهجرة من بيت المقدس إلى الولايات الصليبية في الشمال ، فأجابهم صلاح الدين إلى طلبهم ، وأرسل معهم بعض جنده لحراستهم . ولما جمعت الغنائم وقسمت بين الجند والأمراء تنازل صلاح الدين عن نصيبه لفقراء المسيحيين ، وأعتق من كانوا من نصيبه من الأسرى . وكان من بينهم فتاة فرنسية ؛ فتقدمت نحو صلاح الدين وقالت له : « لقد قتلت أبي أيها المجرم السفاك ، وأسرت أخوي ، واستوليت على ما كنا نملك ؛ فلم يعد لي عائل ، ولم يبق لي ما أقتات منه . وهأنذا تمن علي بالعتق ، كيما يزداد بلائي » .

لم تثر تلك الشتائم المرة صلاح الدين ؛ بل تجاوز عنها ،
وهش في وجهها ، وقال لها : « ما اسم أخويك ؟ » فذكرت له
اسميهما . فبعث بمن أحضرهما ، وأحضر معهما القائد الذي كان
الأخوان من نصيبه في القسمة ، فطلب إليه صلاح الدين أن يبيعه
هذين الأسيرين . فأبى القائد ذلك عندما عرف غرض سيده ،
وخلى سبيلهما . ولكن صلاح الدين أبى إلا أن ينقده ثمنهما
مضاعفاً ، ثم رد لهما مالهما ، وأقبل نحو الفتاة وقال : « أما زلت
عند رأيك من أننى مجرم سفاك ؟ »

فقالت الفتاة : « عفواً مولاي ، فإنما هى ثورة الحزن على أبى
المقتول ، وفقد العائل ، وضياع المال ، وخوفى مما تأتى به الأيام ،
وما كنت أسمعه فى بلادى خطأً عن ظلم المسلمين وجورهم ، كل
هذا جعلنى أنطق بما لا أعى ، وإننى مع هذا لست يائسة من
صفحك ، وكرم عفوك . »

ولما همت بالانصراف قال لها صلاح الدين : « إلى أين
أنت ذاهبة ؟ »

فقالت : « إلى بلادى . »

فقال لها : « وما ذا أنت قائلة لقومك ؟ »

قالت : « أقول لمتعصبيهم كلمة الحق فى الإسلام والمسلمين . »
ثم غادرت بيت المقدس هى وأخواها بعد أن أسلموا . ولما

وصلت إلى الإمارات الصليبية في الشمال أخذت تبشر بالإسلام بين قومها ؛ فلم يرقهم ذلك العمل الذي تأتيه واحدة منهم ، فأثمروا بها وقتلوها ، فماتت شهيدة مجاهدة في سبيل الله وإعلاء كلمته . وصلت الأخبار إلى أوروبا معلنة بسقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين ؛ فهاجت الخواطر ، وحرّض القسوس والرهبان الملوك والأمراء والشعوب ، فاندفعوا كالسيول الجارفة نحو البلاد الإسلامية لتخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين .

وصلت الجيوش الصليبية إلى بلاد الشام في الحملة الثالثة تحت قيادة سبعة وعشرين ملكاً وأميراً ، وكان من بين هؤلاء الملوك (ريتشارد) — الملقب قلب الأسد — ملك الإنجليز ، و (فيليب) ملك فرنسا ، و (فردريك) ملك بروسيا ، وغير هؤلاء من القواد والملوك العظام .

حينما اجتمع قواد الصليبيين وملوكهم في بلاد الشام بعثوا إلى صلاح الدين ليعرضوا عليه مطالبهم ، فسار إليهم في كتيبة من جنده الأشداء ، ثم دخل عليهم فخيّاهم ، وطلب إليهم أن يقولوا ما يريدون . فقالوا له : « تعلم أننا جئناك بجيوش لا قبل لك بها ، وأن أوروبا قد بعثت إليك بملوكها وأبطالها . فخير لك ولقومك أن تخلي بيت المقدس في الحال ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك » .

فقال صلاح الدين : « إنكم تعززون بكثرتكم ، ولكننا نعزز بقوة إيماننا ، وصدق عزائمنا . وإنكم قوم تحبون الدنيا ، وتعلقون بها ، أما نحن فقوم نحب الآخرة ، ونعمل لها ؛ ولن ينتصر من أحب الحياة ، ولن ينهزم من طلب الموت وأراده » .

فقام (ريتشارد) من مكانه وقال : « يا صلاح الدين ! إنني ريتشارد ! إنني قلب الأسد ! نحن نعزز بقوتنا قبل كل شيء » . ثم أتى بقضيب من الحديد يبلغ طول قطره ثلاثة (سنتيمترات) ، ووضع أحد طرفيه على نضد ، والطرف الآخر على نضد آخر ، ثم شهر سيفه ، وضرب به القضيب ، فشطره شطرين . عند ذلك عاد (ريتشارد) إلى مجلسه شامخ الرأس ، يتيه كبراً وعجباً بتلك القوة العظيمة . أما الملوك والأمراء فقد صفقوا طويلاً لتلك البطولة النادرة ، ولكن صلاح الدين نظر إلى (ريتشارد) في سخرية واستهزاء ، ثم قال : « ليست أمور الحرب راجعة إلى صلابة السيوف ، وقوة الضرب ، وإنما مرجعها إلى مضاء السيف ، وإجادة الطعن » . ثم أخرج منديلاً من الحرير الرقيق من منطقتة ، وقذف به إلى أعلى ، ثم استل سيفه من غمده ، وتلقف به المنديل في أثناء هبوطه ، فشطره شطرين . فهبت الحاضرون ، وساد المكان صمت عميق .

ولما سقط شطرا المنديل على الأرض مد صلاح الدين سيفه ،
ورفعهما فوق طرفه المتطرف ، وتقدم نحو (ريتشارد) ، وألقاهما
في حجره ثم قال : « بمثل هذه السيوف سوف نلقاكم غداً » .
ثم خرج من مجلسهم .

قام (ريتشارد) من مجلسه ، وأخرج سيفه من غمده ، وأخذ
أحد شطري المنديل ، وجعل يمرره على حد سيفه محاولاً قطعه
فلم يفلح ، فزادت دهشة الملوك والأمراء ، وزاد إعجابهم
بصلاح الدين .

تفرقت كلمة الصليبيين منذ أن وطئت أقدامهم أرض الشام ،
ودب الخلاف بينهم ، وجعل كل ملك يكيّد للآخر . وكان
هناك عداوة شديدة بين (ريتشارد) ملك الإنكليز ، و (فيليب)
ملك فرنسا بسبب امتناع (ريتشارد) عن الزواج من أخت
(فيليب) بعد أن خطبها .

طوقت الجيوش الصليبية مدينة عكا من كل جانب ،
ولكن حرارة الصيف اشتدت وطأتها عليهم ، وتفشّت الأمراض
فيهم ، وازدادت العداوة والبغضاء بينهم ، فعادوا جميعاً إلى بلادهم ،
ولم يبق إلا (ريتشارد) الذي ظل محاصراً للمدينة بجيشه ، وعاونه
في ذلك أمراء الإمارات الصليبية في الشام ونصارى تلك الجهات .

دافع المسلمون عن المدينة دفاعاً مجيداً ، ولم يستطع (ريتشارد) دخولها إلا بعد أن قتل آخر جندي من جنود المسلمين المدافعين عن حصونها . أما صلاح الدين فإنه مضى في إعداد الجيوش ، وتحصين بيت المقدس للملاقاة الصليبيين في موقعة فاصلة .

التقى جيش (ريتشارد) مع جيش صلاح الدين ، فمسكر الجيشان وجهاً لوجه عند بلدة (حِطِّين) ، وكان ريتشارد يخرج لتفقد أحوال جيشه في الليل ليطمئن على راحة قواده وجنوده ، وليقاسمهم مرحهم وطربهم ، ويبث الشجاعة في قلوبهم ، ويخفف عنهم آلام البعد عن الأهل ، ويذهب عن نفوسهم خوف الموت أو القتل ، ويذكّرهم بلذة الظفر والنصر التي من أجلها فارقوا بلادهم . وكان قد اصطحب معه فتاة أخلصت له ، وعملت على توفير أسباب الراحة له ، كانت تتبعه عن كثب أنى سار خلال الليل ؛ لأنها كانت تسمع بأن هناك مؤامرة تدبر في الخفاء لاغتيال (ريتشارد) . ولما أخبرت الملك بمخاوفها عليه ، لم يأبه لقولها ؛ لأنه كان شجاعاً بأسلاً لا يهاب الموت ، ولا يعتقد أن هناك من جنوده من يجرؤ على أن يجرّد سيفه في وجهه . وفي إحدى الليالي تفقدت الفتاة (ريتشارد) في خيمته فلم تجده ، فخرجت تفتش عنه ، فضلت الطريق ، ووصلت إلى معسكر المسلمين ، فراها أحد الحراس من

بعد ، فظنها جنسديا يتجسس أخبارهم ، ويكشف مواقعهم ،
فرماها بسهم أصابها ، فسقطت على الأرض مضرجة في دماؤها .
وصادف أن مر صلاح الدين كهادته كل ليلة على تلك البقعة
فسمع عن كثر أنيناً محزوناً ، فتقدم نحو مصدر الصوت ، وإذا هو
يجد هذه الفتاة تئن وتتوجع من جرحها ، ولما رأت صلاح الدين
ذعرت منه ، وأصابها خوف شديد ، فأغشى عليها ، ولم تعد تحس
شيئاً مما يجري حولها . حملها صلاح الدين على يديه ، وسار بها
حتى وصل إلى أقرب خيمة في المعسكر ، ودعا بالطبيب فنزع
السهم من فخذه ، وأخذ في علاجها بعد أن أوصاه بها
صلاح الدين خيراً .

برئت الفتاة من مرضها ، وكانت تتوق لأن تغادر معسكر
المسلمين ، ولكنها لم تجرؤ على التصريح برغبتها ؛ لأنها كانت
تخشى بأس المسلمين . أما صلاح الدين فقد أعجب بها الإعجاب كله ،
بيد أنه كان في شغل عنها بإعداد معدات الحرب ، وإدارة الجيش ،
وتنظيم شئون البلاد .

التحم الجيشان ، واقتتلا قتالا طويلا أظهر فيه (ريتشارد)
من المهارة الحربية والقدرة على تنظيم الجيش ما جعل صلاح الدين
يعجب بالرجل ، ويحله ويحترمه على الرغم مما بينهما من عداوة .

وهكذا تكون نفس القائد الكبير ، يقدر الشجاعة والبطولة
أنى كانت .

أسر المسلمون بعض الصليبيين ، فلما عرضوهم على صلاح الدين
في خيمته عرفت الفتاة في الأسرى أحد القواد الملائمين لريتشارد ،
فطلبت إلى صلاح الدين أن يسمح لها ببقاء ذلك القائد ، فلما أذن
لها سألته عن مولاه ، فأخبرها بأن هناك مؤامرة تدبر لاغتياله في
هذه الليلة ، وأن هناك من أعدائه الفرنسيين وبعض الإنكليز
من تحالفوا وصمموا على قتله . ثم قال لها : « لقد سمعت منهم ذلك
في أثناء الموقعة ، ولما هممت بالذهاب إلى مولاي لإخباره وقعت
أسيراً في أيدي المسلمين » .

فدعرت الفتاة وجعلت تبكي وتنتحب ، فسمعها صلاح الدين ،
فأقبل عليها ، وأخذ يسألها عن سر بكائها ، فأخبرته بكل شيء
ولم تعقب .

كان من عادة (ريتشارد) منذ أن بدأت المعركة — أن
يخرج في كل ليلة عقب انتهاء القتال ؛ ليتفقد بنفسه القتلى والجرحى
من جنده ، ومعه ثلاثة من خاصة قواده . وفي تلك الليلة التي
دبر فيها أعداؤه المكيدة خرج بمفرده ؛ لأن أحد القواد الثلاثة
أسر ، والآخرين قتلوا في أثناء المعركة .

كانت كثرة القتلى تفتت قلب (ريتشارد) ، وتحزنه حزناً شديداً ، وكلما رأى قائداً صريعاً من يعرفهم أصابه همٌّ وجزع . وفي ناحية من الميدان رأى قائداً ملقى على وجهه ، فجثا على ركبتيه ، وفي رفق جعل يقلبه ، فعرف أنه أحد القواد الفرنسيين الذين كان يقربهم من مجلسه ، فتأثر لهذا ، ووقف مطرقاً كثيراً ثم مضى .

هبط ذلك القائد من مرقدته ، ونفخ في بوق صغير كان معه ، ولشد ما كانت دهشة (ريتشارد) حينما رأى أشباحاً تهبُّ من مراقدها ، وتتسلل نحوه في الظلام ، فتراجع إلى الوراء ، وكادت تخونه قواه ، ولكنه تذكر سيفه فاستله من غمده ، ثم صاح في وجه تلك الأشباح قائلاً : « من أنتم . . ؟ »

فقال له ذلك القائد : « نحن من سنقطع اليوم رقبتك . . »

فقال (ريتشارد) : « لن يكون لكم ذلك . . ! إنني

(ريتشارد) . . ! إنني قلب الأسد . . ! إنه لم يخلق بعد ذلك الرجل

الذي يقتلني ، ولكن خبروني أولاً : هل فيكم إنجليزى ؟ »

فقال له القائد : « نعم » . فلم يتردد (ريتشارد) في

الهجوم عليهم ، وأخذ يطيح برقابهم ، الواحد تلو الآخر ،

ولكنهم التفوا حوله ، وتسكثروا عليه ، وكلَّ ساعده من كثرة

الضرب ، وأخذت قواه تخور ، فأدرك أنه هالك لا محالة . وفي تلك اللحظة الرهيبة وصلت كتيبة من جند المسلمين ، فانقضت على هؤلاء الخونة ، وفرقتهم من حول (ريتشارد) ، وأعملت فيهم السيف حتى قضت عليهم ، ثم طلبوا إلى (ريتشارد) أن يسير معهم إلى معسكر مولاهم صلاح الدين الذي بعث بهم لإنقاذه من أيدي أعدائه .

لم يتردد (ريتشارد) في المسير مع تلك الكتيبة إلى معسكر المسلمين ؛ لأنه كان يعرف في صلاح الدين النبل والترفع عن الدنيا ، ولأنه اعتقد أن القائد الذي يخلص عدوه من الموت — بيد أعدائه — تأتي عليه نفسه أن يأسره .

قابل صلاح الدين (ريتشارد) مقابلة الصديق لصديقه ، لا العدو لعدوه ، حيث أكرم وفادته . وحينما كانا معا يتحدثان همس صلاح الدين في أذن أحد أتباعه فخرج من الخيمة . وبعد قليل دخلت الفتاة ، فما إن وقع نظرها على (ريتشارد) حتى أسرع إليه ، ثم انحنت على يد مليكها فقبلتها . فعجب من أمر مجيئها إلى معسكر المسلمين ، وبقائها فيه ، ورماها بالغدر والخيانة ؛ ولكن صلاح الدين هدا من ثائرتة ، وذكر له أنها كانت السبب في إنقاذه من الموت في هذه الليلة . وقصت الفتاة على (ريتشارد)

ما وجدته في صلاح الدين وقواده المسلمين من النبل والشرف
وكرم الضيافة .

ولما هم (ريتشارد) بالانصراف أراد أن يأخذ الفتاة معه ،
فقال له صلاح الدين - ليختبره - : « ألا تدعها لي ذكري
لإنقاذك من أيدي أعدائك ؟ »

فقال (ريتشارد) : « لا يا صلاح الدين . لن أدعها لك ،
ولتفعل ما تريد . » فضحك صلاح الدين ثم ربت على كتف
(ريتشارد) وقال : « ما كنت أحسب أنك فاعل معي مثل هذا ...
إنها لك أيها الملك ، ولتعلم أن صلاح الدين لم يكن لينتظر على حسن
صنيعه جزاء ولا شكورا . وإن كان لي مطعم في الفتاة قبل اليوم
فقد سلوتها منذ اللحظة التي أرسلت فيها الكتيبة لإنقاذك من
الموت حتى لا يظن أنني رغبت في استبقائها ثمنا لما قدمت » .

انتهت الحرب بين صلاح الدين و (ريتشارد) بانتصار
صلاح الدين انتصاراً حاسماً ، وعقدت بين الطرفين معاهدة كان
من بين شروطها أن يوقف القتال بين المسلمين والصليبيين لمدة
ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر .

عاد (ريتشارد) إلى بلاده من غير أن يحقق أمله الذي كان

يحمل به وهو دخول بيت المقدس ، والاستيلاء عليه . ولكنه عقد النية على إعادة الكرة بعد انتهاء مدة الهدنة . وقبيل رحيله أرسل إلى صلاح الدين كتاباً يذكر له فيه أنه عائد للحرب ، ولن ينثنى عن ذلك حتى يخلص بيت المقدس من أيدي المسلمين . فأرسل له صلاح الدين خطاباً رقيقاً يذكر له فيه أنه إذا لم يكن هناك مفر من هزيمته فإنه يفضل أن ينهزم لريتشارد لا لملك آخر غيره .

عاد صلاح الدين إلى القاهرة ، وأخذ يوطد ملكه ، وينظم حكومته ، ويبني الحصون والقلاع والمساجد . فبنى قلعة عظيمة فوق جبل المقطم ، وأحاط القاهرة بسور عظيم ، وجعل ينشر التعليم بين الأهالي ، ويعني بأمر رعيته ، فأحبه الجميع لعدله وكرمه وشجاعته ، وتغننت الركبان بذكوره ، ومدحه الشعراء بأنفس القصائد .

اتسعت مملكته فشملت مصر والحرمين الشريفين ، وجزءاً كبيراً من بلاد الشام ، وكفاه فخراً وشرفاً أن يخلص بيت المقدس من أيدي الصليبيين ، وأن ينتصر عليهم في جملة مواقع سجلها له التاريخ في صحائف الفخار والشرف .

وفي فصل الربيع من سنة ١١٧٤ أصاب صلاح الدين برد شديد ألزمه الفراش أياماً ، ولما اشتدت عليه وطأة المرض ، ورأى

أنه هالك لا محالة تنازل عن جميع ما يملك لأعمال الخير ، وبناء
المساجد والمدارس .

وفي إحدى الليالي فاضت روحه ، وصعدت إلى جوار ربها
حيث مقام الصّديقين والشهداء والأبرار . فحزن العالم الإسلامي
لموته حزنا شديداً ، واجتمعت الآلاف المؤلفة من المسلمين ليودعوا
بطلهم العظيم الوداع الأخير .

وها هي ذى الأعوام تمضي طوالاً على موت صلاح الدين
الأيوبي ، وما زال اسمه يذكر بكل إعجاب وفخر ، وما زال
القواد والملوك في مشارق الأرض ومغاربها يدرسون تاريخ
حياته ليقفوا على مواطن بطولته ، كما يسيروا على نهجها ،
ويهددوا بهديها .

محمد فريد

مقدمة

إليكم يا أبناءى أسوق هذه القصة ، ففيها غذاء لعقولكم ،
وفيهام متاع لقلوبكم ، وإرضاء لمواطنكم .

إنها قصة بطل مصرى عظيم كره الشهرة فاشتهر ، وآمن
بحق الوطن فضحى فى سبيله بكل ما يملك من صحة ومال وراحة .
لقد جعل حقوق زوجه وحقوق أبنائه وحقوق نفسه وراء حقوق
الوطن العزيز ، فدل بعمله هذا على أن التربة المصرية تصلح
لإنتاج أكرم الرجال ، وأعظم الأبطال .

إن فىنا رجالا يحبون وطنهم أكثر مما يحبون أولادهم ،
ويحبون المجد أكثر مما يحبون المال . وإن فى سيرة محمد فريد
لتوضيحا لما نقول .

إن هذه القصة تذكرك سريعا بقصة أولئك الأبطال فى كل
أمة ، الذين ضحوا بكل شىء فى سبيل الحق والعدل ، فلم يخافوا موتا ،
ولم يخشوا افتراء ، ولم يرهبوا أحدا .

إننى أقص عليكم قصة محمد فريد هذا الذى له فى عنق كل
مصرى دين ، وله فى تاريخ مصر الحديث مواقف غيرت سير
الحوادث ، وجعلت المصريين قضية واضحة الأهداف ، بينة المعالم ،
عرفها المصريون ، وآمن بها الغربيون ، واعترف بها
المنكرون الجاحدون .

هذا البطل المصرى العظيم — على قرب عهده منا — وعلى
شهرة العظيمة فى التاريخ — لا يعرف عنه أكثر المصريين
إلا اسمه ، وإلا أنه زعيم من زعماء النيل . أما العناصر التى تألف
منها تاريخ هذا البطل فإننا سنوضحها فى هذه الرسالة الصغيرة .
وعار على مصر والمصريين أن ينسوا محمد فريد . وإن تاريخه
هو كلمة الوطنية التى يجب أن يتلقاها الأطفال مع ابن أمهاتهم .
وإن تاريخه هو كلمة التضحية التى يجب أن يتعلمها الأطفال
مع ما يتعلمون من لغة ودين .

محمد فريد الطالب

١٨٦٨ — ١٨٨٧ م

لاتفكر أيها الشاب فى هذه المقاييس التى يقيسون بها كفايات
الشباب ، فأنت أجل وأعظم عند الله وعند الوطن مما يصفون .

إن جهدك ونشاطك لا يساوى — كما يقولون — ستين
جنيهاً فى العام ، أو تسعين جنيهاً أو أكثر من ذلك بحسب
درجة تعلمك .

دع عنك هذا القول ! ولا تفكر فيه أبداً ، ولا تصدقه
ولا تؤمن به ؛ فأنت أغلى وأثمن مما يقولون . وأنت عند هذا الوطن
من أضعاف وزنك ذهباً — إن كان الذهب يصلح معياراً
تقاس به قيم الرجال — بل أنت أجدى على هذا الوطن ، وعلى
الحياة الإنسانية الفاضلة ، من قناطير الذهب ، وكنوز المال .
إن ضميرك الحى ، وقلبك المملوء ثقة بالمستقبل ، وسمو أخلاقك ،
ونبل غايتك ، ونظرك إلى العلا دائماً — كل هذا يجعل منك نوراً
وهاجاً ، وشرارة مضيئة تنير ولا تحرق . ولقد كان بطلنا من هذا
الطراز ، فأخلص وضحى حتى صار من رجال الدنيا .

لقد كان هذا البطل شاباً مثلك تعلم فى المدارس الابتدائية
والثانوية والعالية ، ولم يعرف عنه فى هذه المرحلة إلا أنه طيب
القلب ، صريح ، دمث الخلق ، محبوب عند إخوانه وأساتذته .
وهذا الوصف الذى وصفناه به يجعله تلميذاً عادياً ككل التلاميذ .
فهل كان كذلك حقاً ؟

لست أرى هذا رأى ؛ فإن الصفات التى تحلى بها محمد فريد

التلميذ لا يستطيع أن يتحلى بها غيره ممن هم في مثل أحواله
وترفه ونعيمه .

فقد كان أبوه أحد هؤلاء العظماء القليلين الذين يحملون رتبة
« الباشوية » في سنة ١٨٨٠ ، بل كان هذا الباشا ناظراً للدائرة
السنية ، وكان محبوباً جداً لدى الخديو ، وقد تقلب في عدة
وظائف ، وكان مديراً لعدة مديريات في أوقات مختلفة .
وكانت أمه كريمة لأحد كبار سرة العاصمة وتجارها ، وكانت
سيدة فاضلة .

لم يركبه الغرور الذي يركب كثيرون من أبناء الأغنياء .
ولم يشغله النعيم عن مدرسته ، وعن تحصيل دروسه . ولم تغير النعمة
من طباعه ، فبقى كما عهدته إخوانه ، دمث الخلق ، محبوباً من
الجميع . وتلك منزلة يحسده عليها الكثيرون .

وقد نال شهادة الحقوق سنة ١٨٨٧ ، وسنه تسع عشرة سنة ،
وتزوج في السنة التالية (١٨٨٨) ، وكان ذلك ضمناً
لعفته وطهارته .

محمد فريد الموظف

١٨٨٧ — ١٨٩٦ م

كان ذلك منذ أكثر من نصف قرن . كان حامل
الابتدائية موظفاً محترماً . وكان حامل (البكالوريا) يتولى
رفيع المناصب .



الخالد الذكر المرحوم محمد فريد بك

أما حامل الشهادة العليا فكان يعد نفسه للمناصب العليا ،

والوظائف الخطيرة . ولم يكن يظفر بهذه الشهادات في الغالب إلا أبناء الطبقة الحاكمة ، ومن في درجتهم من كبار الأغنياء . وكان محمد فريد واحداً من أبناء « الباشوات » وكبار الموظفين كما ذكرنا .

ولحق في سنة تخرجه (٢١ مايو سنة ١٨٨٧) بوظيفة مترجم بقلم قضايا الدائرة السنية ، براتب شهري قدره عشرة جنيهات . وبعد عام واحد رقي وكيلا لهذا القلم براتب قدره خمسة عشر جنيها شهريا ، ونال « البكوية » في سنة ١٨٩١ .

ثم نقل إلى النيابة العمومية في وظيفة مساعد نيابة براتب قدره ستة عشر جنيها شهريا ، ثم انتدب لنيابة الأزبكية ، ورقي إلى وكيل نيابة من الدرجة الثالثة . وفي سنة ١٨٩٤ بلغ راتبه عشرين جنيها ، وفي مايو سنة ١٨٩٥ عين وكيلا بنيابة الاستئناف .

تسع سنوات قضاها محمد فريد في الحكومة ، وكان مركزه بعده لأن يتولى منصبا كبيرا من مناصب الدولة ، لولا أن المقادير كانت تعدده لازعامة الوطنية ، ولخدمة وادي النيل من منبعه إلى مصبه ، وللجهاد والعظمة .

نعم لقد كانت أحوال هذا الشاب تعدده لعيشة هادئة ، ناعمة راضية ، فهو شاب ينعم بقوة الشباب ونشاطه . وقد حصل على أرقى شهادة في مصر ، وقد تولى منصبا يؤهله للمناصب الكبرى

ومنها مناصب الوزراء . وأبوه من رجالات الدولة المعروفين ، وأمه من أكرم العقائل ، ومن أكرم الأسر في مصر . وهو بعد هذا كله قد تزوج ، وأصبح رب أسرة وأولاد . كل هذه العوامل والأسباب كانت تجذبه إلى منصبه جذبا ، وتغريه بالوظيفة إغراء ؛ ففيها تلمس الحياة الناعمة ، وفيها يلمس الجاه والنفوذ والظهور والترقى .

وكيف يترك الوظيفة ، وهذا أبوه قد وصلت به الوظيفة إلى أرق مناصب الدولة ، ونال أعلى رتبها ؟

وكيف يترك وظيفة الحكومة في وقت كان الموظف فيه حاكما غير مسئول إلا عن إرضاء هيئات خاصة ؟ فإن رضيت عنه فله ما يشاء من رقى ورتب وراتب ...

ولكن محمداً لم يهو النعيم ، ولم يسكن إلى الترف ، ولم يتشبث بالمنصب ، ولم يغتر بالوظيفة ؛ بل سار في طريق كلها شوك وقتاد ، وحرب وجلاد ، ومشقة وجهاد ، فيها سيطرة ، وفيها حرمان ، وفيها نفي وتشريد ، وفيها وعد ووعيد .

وهو قد رأى الطريقين ، وجد بين السبيلين ، وتركت له فرصة الاختيار ، فانظر كيف يختار ! أتراه عاقلا أم به جنّة ؟ أتراه واعياً أم به غفلة ؟

هكذا اختلف الناس في أمر هذا الشاب ، وأيد كل منهم رأيه بالأسباب . فمن قائل : إنه طيش ، وطيش الشباب ، وتهور وحمق وغباء . ومن قائل : ثورة في سبيل الحرية مشكورة ، وحرب على الاستعباد مشبوبة ، وغضبة في سبيل الحق والعدل محمودة .

لماذا استقال محمد فريد ؟

أما سبب استقالته الحقيقي فهو رغبته في الجهاد ، وكرامته للاستبداد ، وحبه للحرية . وأما السبب المباشر لهذه الاستقالة فهو أمر عده إهانة لشخصه ، واعتداء على استقلال القضاء . أظهر ميوله الوطنية ، وعطفه على قضية « المؤيد » التي قدم صاحبها للمحاكمة ؛ لتخمد الأنفاس ، وليذل الناس . وكيف يكون موظفاً ، ويعان عطفه على قوم يحاربون الاحتلال ؟ وكيف يكون موظفاً بالنيابة ، ويشترك في محاربة الاحتلال ؟ لا بد من نقله إلى الصعيد ، ولا بد له من أن يستقيل احتجاجاً على الاحتلال ، وتدخله في أن يمس استقلال القضاء .

وكانت تلك أول توضيحية لموظف في حكومة مصر ، يغضب لكرامته ، وكرامة البلاد ، ومن يغضب ؟ يغضب ممن يبدع الأمر في البلاد .

وكانت توضيحته هذه غير مألوفة في ذلك الوقت . ولم يكن

أحد ينتظرها ، بدليل الضيجة التي أثارتها في مصر وفي أوروبا .
أرسل له الأستاذ محمود^(١) أبو النصر « بك » كتاباً من
باريس ، بتاريخ ٢ من ديسمبر سنة ١٨٩٦ بعد الاستقالة
بأسبوع ، يصور له تقدير الناس لموقفه المشرف ، قال :

رسالة محمود أبو النصر بك الى محمد فريد :

« هاج بالي ، واضطرب خاطري ؛ إذ علمت بما قابلتك به
الاحتلال جزاء إخلاصك للوطن ، وتظاهرك بنصرة الحق ،
دون أن تخشى لومة لائم ، ولا سطوة حاكم ...

أليسوا باضطهادهم لمثلك عاملين على خدمة قومهم وبلادهم ؟
بل وما الذي كنت تنتظر غير ما عوملت به ؟ وقد عرف الخاص
والعام شرف إحساسك ، ونبل قصدك وإخلاصك ، وشهد
الغريب والبعيد بفضلك ، وشم نفسك ، وعزة مقامك ، حتى
أنزلك الإخوان منزلة وحدك ، تغبط عليها من أبناء الوطن عامة ،
وأنجال الذوات خاصة . وحياتك إنه لأقل ما كنت أنتظره لك
من يوم أن رأيتك ، وعرفتك . فماذا تقول ؟

اللهم إن كانت سعادة الحياة في مثل ذلك الراتب الذي
كنت تأخذه على شرط إمامة كل عاطفة شريفة فلا كانت الحياة .

(١) المرحوم محمود أبو النصر بك كان محامياً شهيراً ، ثم عضواً في مجلس
النواب منذ إنشائه .

اللهم إن كنت تربيت ونشأت في مهد الكمال الإنسانية
لمثل تلك الخدمة ، فلا كانت التربية .

اللهم إن كان كبر عليك اضطرهادهم ، وشق عليك بغيهم ،
فإنك لست عندنا بفريد .

إن مطالب هذه الحياة منحصرة في أمرين : سعة الرزق ،
ورفعة المنزلة . أما سعة الرزق فمن الذي مات جوعاً ؟ والحمد لله لست
إلى هذا الحد . وأما رفعة المنزلة فهو مطلب قد بلغته اليوم أكثر
من ذي قبل ؛ فلقد سموت بهذا الاضطهاد منزلة في قلبي أرفع
من منزلتك الأولى . ومثلي من المحبين الصادقين كثير . فاصبر
ولا تجزع . واهناً ودم كما كنت فريداً .

محمد فريد المحامي

١٨٩٧ — ١٩٠٤

ما أشبه المحاماة بالجهاد ! وما أشبه المحامين المخلصين لمهنتهم
بالمجاهدين الصادقين !!

إن المحاماة هي الخطوة الأولى في سبيل الجهاد ، وهل المحاماة
إلا دفاع عن الحق ، وإظهار للعدل ، وانتصاف للمظلوم من الظالم ؟
فلا مبالغة ولا مغالاة إذا قلنا إن المحاماة في نزاهتها نوع من
الجهاد ، وباب من أبوابه .

لذلك رضى محمد فريد بك أن يكون محامياً على هذا الأساس .
ولبت في المحاماة سبع سنين ، كان فيها مثال المحامى النزيه
الصادق ، فلم يعرف عنه أنه قبل قضية ليس صاحبها على حق ،
مهما يضاعف له فى الأجر . عرضت عليه إحدى الأميرات
قضية صكوك (كمبيالات) بمبالغ كبيرة على ورثة شخص
كان قد حرر على نفسه هذه الصكوك ، فرفضها ؛ لأنه كان يعلم
أصل هذه الصكوك ، وأن سببها غير مشروع ، رفض القضية مع
أن ظاهرها تؤيده النصوص القانونية . وكذلك كان شأنه فى
جميع قضاياها .

من هذا الذى تتكلم عنه ؟ ما هذا بشراً ، إن هذا إلاملك
كريم . لقد خلع رداء المحاماة نقياً ليلبس رداء الجهاد ؛ فما خلق
ليكون محامياً عن فرد ، وإنما خلق ليكون محامياً عن أمة .

كان أبناء الذوات فى ذلك العهد يأنفون من الاشتغال بالمحاماة ،
كما كان أشرف العرب فى صدر الإسلام يأنفون من قول الشعر .
ولكن محمداً ضرب لهم المثل فى القدوة الحسنة ؛ فالرجل الشريف
يستطيع أن يعيش شريفاً فى كل وقت ، مهما تختلف به
أسباب الرزق .

الأدب في خدمة الوطن

شقفه بحب بهاره

نود أن نصور الحياة السياسية في مصر إبان المدة التي درس فيها الحقوق وما بعدها ، تصويراً موجزاً يعين القارئ على فهم رسالة الأديب في ذلك الوقت .

كان الإنجليز قد دخلوا مصر سنة ١٨٨٢ للدفاع عن الخديو ، وحمايته من الثوار العربيين ، ولكنهم في الحقيقة دخلوها تنفيذاً لسياسة قديمة لهم ، ترمى إلى الاحتفاظ بمصر ؛ لموقعها الجغرافي الفريد ، ولأنها باب الطريق إلى الهند ، ولأنها تعد قناة السويس — بعد فتحها — أهم شريان يصل بين أجزاء إمبراطوريتهم الواسعة .

دخلوا مصر مدافعين عن الحاكم الشرعي للبلاد . وكان للبلاد مجلس نيابي فمطلوه ، وأقاموا بدل الجمعية التشريعية مجلس شورى القوانين ، وهو مجلس استشاري لا يملك سن القوانين ، ولا النظر في ميزانية البلاد ، ولا مراقبة الحكومة .

وكانت الصحافة المصرية تسير في طريقتين مختلفتين ، بعضها عون للاحتلال ، وصنائع الاحتلال ، والدفاع عن الحكومة القائمة . وبعضها حرب على الاحتلال وصنائه ، ونقد لاذع

للحكومة القائمة . وكان لكل فريق من هذه الصحف أنصار
وأتباع .

لهؤلاء الاضطهاد والمحاكمات والتنكيل ، ولأولئك النفوذ
والجاء والتدليل .

وإذا ففي مصر أخذ ورد ، وجزر ومد ، وصعود وهبوط ،
وقيام وقعود ، وثورة وسكون ، وإذعان وعصيان .

في البلاد احتلال قبض بيد من حديد على مرافق البلاد
جميعاً ، فالحكومة في يده ، وأموال البلاد تحت تصرفه ، ووظائف
الحكومة صارت هبات وهدايا لمن يؤيد الاحتلال ، ويدافع
عن المحتلين .

وفي البلد فريق الوطنيين الذين يحاربون الاحتلال ،
ويطالبون بالاستقلال . وهؤلاء أعداء للاحتلال ، وأعداء لكل
وزارة تؤيد الاحتلال . وفي البلد حاكم شرعي غاضب لسلطانه
المسلوب ، وحقه المغصوب . وهو مشجع حتماً كل محاولة يراد بها
تقليل أظفار الاحتلال ، أو تخليص البلاد من شره .

كان الشيخ علي يوسف صاحب « المؤيد » يدعو لحق
الوطن ، وحاكم البلاد الشرعي ، بقلم كان قصفه أشد من
قصف المدافع .

وكان « اللواء » الذى أنشأه مصطفى كامل باشا لسان
الحزب الوطنى ، ولهجته فى محاربة الاحتلال معروفة .
وكان هناك لواءان آخران يصدران عن الحزب الوطنى باللغة
الفرنسية واللغة الإنجليزية . وكان محمد فريد ممن اكتبوا فى رأس
مالها بمبلغ كبير .

تلك كانت حال مصر منذ احتلها الإنجليز سنة ١٨٨٢ ، فأما
محمد فريد الأديب فقد جرد أدبه وقلمه وحياته لخدمة وطنه ؛
فكتب فى السنة التى تخرج فيها (١٨٨٧) مقالات نشرتها له
مجلة الآداب للشيخ على يوسف ، بتوقيع (م . ف) ؛ لأن أباه
كان ينهاه عن الكتابة فى الصحف خوفاً من التنكيل به ،
فأرضى أباه ، وأرضى ضميره .

وفى المدة من سنة ١٨٩١ — ١٨٩٧ كتب مذكرات عن
الأحداث التى حدثت بمصر فى هذا العهد ، فدل بذلك على أنه
كان يقظاً ، وعلى أنه كان يميل إلى التاريخ ومباحثه . وكانت له
تعليقات على هذه الحوادث تدل على غيرته الوطنية ، وحبه لبلاده .
بل لقد ألف كتباً فى التاريخ ، واختص محمد على باشا الكبير
بتاريخ واف كتبه وهو فى الرابعة والعشرين من عمره — وكان
موظفاً وأبوه كما ذكرنا من العطاء — فكان ذلك دليلاً جديداً

على أن هذا الشاب من طراز خاص ، وليس من طراز أبناء
الدوات . وأخرج كتاباً آخر في تاريخ الدولة العثمانية ، وكتاباً
ثالثاً في تاريخ الدولة الرومانية . وكانت له مقالات كثيرة أكرتها
في المؤيد ثم في اللواء .

ذلك هو محمد فريد الشاب الموظف الأديب ابن الباشا
الكبير ، وذلك هو أدبه وإنتاجه . فكيف رأيتاه ؟ وكيف
حكمت عليه من أدبه ؟

أرأيتاه قد اتجه كما اتجه غيره من الشبان إلى الغيد الحسان ،
يصف الظبي القريير ، والثدى المستدير ، والكأس والطاقس ،
وليالى أبي نواس ، بل انصرف إلى الوطن المظلوم ، والحق المهضوم ،
والحاكم والمحكوم ؛ فدون المذكرات ، وكتب المقالات ،
وأشأ كتباً تذكر بالماضى المجيد ، ونشر تاريخ الرومان عسى
أن تكون فيه عبرة لمن اعتبر .

وتمخضت هذه الحركة عن ظهور الزعيم الوطنى العظيم
مصطفى كامل باشا ، فجمع شمل الأمة ، وطالب بالحرية ، وقال
كلمته المشهورة : « أحرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا » .

وكان محمد فريد من المعجبين بمصطفى ، لأنه وجد فيه المصرى

الأمين ، المخلص لوطنه وبلاده . التقى به في باريس ، وعرف
آلامه وآماله ، فتوثقت عرا الصداقة بينهما . ومن ذلك العهد
ظلا صديقين حميمين ، وزميلين مخلصين في الجهاد . وتعاهد هو
ومصطفى كامل والدكتور محمود لبيب في سنة ١٨٩٦ على خدمة
الوطن حتى الممات . وأول عمل شرعوا فيه تأسيس صحيفة أسبوعية
باللغتين الفرنسية والألمانية للدفاع عن حقوق مصر في أوروبا .

وازدادت عرا الصداقة والإخاء توثقاً بين مصطفى وفريد ،
حتى صار فريد زميله المخلص ، وعضده الأكبر ، في الحركة
الوطنية ، ولازمه وأيده في جهاده ، وبذل له ما بذل من العون
الأدبي والمادي ، ومدّه بماله ، وظل وفياً له طول حياته ، ثم حمل
الراية بعد وفاته ، فكان خير خلف لخير سلف . ففي صيف
سنة ١٩٠٧ سافر مصطفى إلى أوروبا ، فأناوب عنه فريداً في إدارة
الألوية الثلاثة .

ولقد كان مصطفى يراه خير خلف له في قيادة الحركة الوطنية ،
فاختاره وكيلاً للحزب الوطني في أول جمعية عمومية له ، وأوصى
بانتخابه رئيساً من بعده .

محمد فريد الزعيم

مصر كلها في القاهرة ، والقاهرة كلها خلف الجثمان الطاهر .
منظر رهيب يملأ النفس رهبة وجزعاً . أمة تشيع نعشاً ،
ونعش يحمل أمل أمة . والجموع تمر تباعاً ، ولا تكاد تنتهى .
مصر كلها في هذا المكان : الرجال كلهم ، والنساء كلهن لم
يتخلف أحد منهم عن الموكب . أولئك الفلاحات العجائز ،
والفتيات المتدثرات بالسواد ، ومحاجرهن تفيض دمعاً ، وقلوبهن
تنفطر هما وحزناً . قد أقبلن من المنوفية وجئن من دنشواى فى
قطار الليل ، والليل أسود حالك الظلام ، والنجوم تلمع ، والوادی
كئيب حزين ، والناس ينظر بعضهم إلى بعض ولا يتكلمون .
أولئك الفلاحات العجائز ، والفتيات الصبايا قد جئن من
أعماق القرية ليودعن المحامى مصطفى كامل إلى مقره الأخير .
أولئك الفلاحات العجائز ، والفتيات الصبايا قد جئن من
دنشواى ليودعن محامى قضية دنشواى المشهورة .
إذاً لقد مات مصطفى كامل ، وفى كل بيت ماتم ، وفى كل
قلب جرح بالغ ، وفى كل عين دمة متحجرة .
مات المحامى الكبير ، والزعيم العظيم ، مات مصطفى كامل

الذى كان يدافع عن مصر . فمن محامينا اليوم ؟ أم ضاعت القضية ، ونسيت الأمانى ، وطارت الأحلام ؟
فى أيام المائت الثلاثة كان الناس يفكرون فى هذا المصير .
واجتمعوا فى اليوم الرابع فاختاروا محمد فريد ليكون زعيما لمصر ، مكان المصطفى الراحل .

ووقف فريد يذكر آثار مصطفى وجهاده وقال :
« أيها الرئيس الغائب بجسمه ، الحاضر معنا بروحه ، قد سمعنا قولك ، وانتصحننا بنصحك ، فاجتمعنا اليوم لنبرهن للعالم أجمع أن عملك دائم بإذن الله . وإنا سائرون فى الطريق التى فتحتها أمامنا ، وضخيت بزهرة شبابك فى تمهيدها ، فقم فى أمان الله ورضوانه .

وفى الختام هلموا بنا نبتهل إلى الله أن يمدنا بروح منه ، ويوفقنا إلى ما فيه الخير والفلاح » .

وانتخب فى تلك الليلة رئيسا للحزب الوطنى بالإجماع .
وأول عمل قام به أنه أرسل برقية إلى وزير خارجية إنجلترا يقول فيها :

« جناب السير إدوارد جراى وزير خارجية إنجلترا بلندن .
الجمعية العمومية للحزب الوطنى انتخبنى رئيساً بدلاً المرحوم

مصطفى كامل باشا ، وكلفتني أن أجدد احتجاجها على احتلال
القطر المصري بلا حق . وتعلن عزمها على السير في خطة المرحوم
الرئيس حتى تنفي إنجلترا بوعودها .

محمد فريد
رئيس الحزب الوطني

وفي يوم الانتخاب دق جرس المسرة (التليفون) ، وإذا الخديو
يطلب الزعيم الجديد . فلما توجه إليه بسرأي عابدين قابله على الفور ،
وهناه بكل لطف مؤملاً الخير الكثير من وجوده في مركز
الرئاسة ، وقال له : « إن وجود مثلك على رأس الحركة الوطنية
مفيد جداً ، لأنك لست محتاجاً ، ولا طالباً للمال ، ولأنك من
أسرة خدمت البلاد . ووالدك كان مشهوراً بالثقة والصدق
والإخلاص . ولا يمكن للإنجليز أن يقولوا عنك بأنك طالب
شهرة أو مال أو وظيفة » . ثم سأله عن نظام الجرائد فأخبره بأنها
ستسير بإذن الله ، وأنهم وضعوا لها نظاماً يساعد على بقائها ، ثم
عرض عليه استعداده للمساعدة بالمال ، فرفض حتى لا يكون
أسيره وطوع أمره ، وانصرف .

رأى الخديو بعد ذلك بأنني لست من الذين يطيعون أوامره

طاعة عمياء ، فأخذ يدس لى الدسائس لإسقاطى من جهة ، ويظهر
لى التودد من جهة أخرى .

المفازة الأولى لمحمد فريد :

« بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن ، وخور
العزيمة ، ومطيتها الدهان والتلبيس . فى أسواقها النافقة تشتري نفيسات
النفوس بزيوف الفلوس ، وتباع الذم والسرائر بالابتسام وهز
الرءوس ، وبيمينك أستقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة
فى القول ، حياة الجهر بالرأى ، حياة الإرشاد العام ، حياة
الاستماتة فى الدفاع عن البلاد العزيزة . أستقبل هذه الحياة بعد
أن قضيت فى سابقتها ثمانى حجج ، بلغت فيها ذلك المنصب الذى
كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجوف فيه . أستقبل فيه هذه الحياة
المخوفة بالمخاطر ، منبريا فى ميدانها ، فإما إلى الصدر ،
وإما إلى القبر ... »

سيسير اللواء كما كان عليه خادما للأمة المصرية ، مدافعا عن
الأريكة الخديوية ما حرصت على مصلحة رعاياها ، مجاهداً ضد
الإنجليز ما بقوا فى بلادنا ، حاثا على الفضيلة والأخلاق الكريمة ،
داعياً إلى توحيد عناصر الأمة على اختلاف مللها ونحلها ، وتباين
مشاربها ولهجاتها .

his
line

فاللهم أسألك لساناً ناطقاً بالصواب والحكمة ، وقلماً لا جولة
له في ميادين القحمة ، ولا علم له بمعاهد الفحش والسباب .
هذا هو الأسلوب الجديد لصحيفة اللواء في عهد محمد فريد .
وهو أسلوب قوى يمتاز بالصراحة في القول ، والجهر بالعقيدة ،
وهو يشبه ما امتاز به فريد من صراحة وثبات .

هذا هو أسلوب اللواء على لسان رئيسه الجديد الأستاذ
المرحوم الخالد الذكر الشيخ عبد العزيز جاویش .

كان محمد فريد في مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥ م .
فالتقى هناك بالأستاذ عبد العزيز جاویش — رحمه الله — وتعرف
به لأول مرة ، وعرفه بمصطفى كامل سنة ١٩٠٦ بباريس ،
فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية .

فلما رأى أن اللواء في حاجة إلى رئيس تحرير كفء لهذه
المهمة عرضها على الشيخ عبد العزيز جاویش ، وكان وقتئذ
مفتشاً للغة العربية بوزارة المعارف ، فقبلها ، وبدأ يكتب في اللواء
يوم ٣ مايو سنة ١٩٠٨ ، وافتتح أول مقالة بالكلمة السابقة .

عهد الكفاح المر

كان مصطفى كامل الزعيم الأول يحارب في جبهة واحدة ؛ لأنه كان ينقم على الاحتلال ، يعاونه في ذلك جمهور الأمة المصرية ، ويؤيده في ذلك الخديو حاكم البلاد وأميرها . وكذلك كان الحال عند ما تولى الزعيم الثانى محمد فريد ، كما ظهر ذلك من التهنئة الرقيقة ، والعروض السخية التى قابل بها الخديو انتخاب محمد فريد رئيساً للحزب الوطنى .

محاكمة الشيخ جاویش

اختار الزعيم (محمد فريد) صديقه الوفى المرحوم عبد العزيز جاویش ليكون رئيساً لتحرير « اللواء » فى عهده الجديد .
وحدثت ثورة فى السودان حوكم فيها عدد من السودانيين الثوار . وكان الشعب المصرى يتلهف لمعرفة أخبار هذه المحاكمة ، وتضاربت الأقوال فيها ، وفى عدد المحكوم عليهم .
... ونشر اللواء أخباراً عن هذه الثورة بأسلوب قوى يسىء إلى الاحتلال بعنوان [دنشواى أخرى فى السودان ، ٧٠ مشنوقاً

و ١٣٠٠ م. فسيق الأستاذ جاويش إلى المحاكم ، ولكنه
برئ في النهاية ، وكان لحكم البراءة دوى استحسان في البلاد .
ولا يمكننا أن نترك هذا الموضوع من غير أن نذكر كلمة عن
المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش بك ، وأثره في ترقية التعليم
الأولى ، وتنفيذ تعليمات الحزب الوطنى فى النهوض به .

الشيخ عبد العزيز جاويش بك

تخرج الشيخ عبد العزيز جاويش بك فى دار العلوم ، ودرس
بإنجلترا . وكان ذكى الفؤاد ، ممتلئاً حماسة ووطنية ، يود لبلاده
الاستقلال والحرية ، ويرى أن الذى ثبت أقدام الاستعمار فى
البلاد الجهل الفاشى ؛ فأخذ يدعو إلى إنشاء مدارس ثانوية
وابتدائية ، نهارية وليلية .

وقد أتاح له القدر فرصة إشرافه على التعليم الأولى والإلزامى
بتعيينه مراقباً عاماً للتعليم الأولى ، فرأى بثاقب فكره ، وسامى
عزمته ، وشريف غايته ، أن يتوسع فى إنشاء المدارس الأولية
والإلزامية فى المدن والقرى ، وأن تغزو المدارس الإلزامية الريف
المصرى ، على أن تقوم هذه المدارس بتعليم البنات فى الصباح ،
ثم يليهن البنون حتى يتم تعليم أكبر عدد من البنين والبنات ،

فتستدير الأمهات والآباء ، ويقضى على الجهل المنتشر في أرجاء
البلاد وقتئذ .

ولو امتد به الأجل لنالت الأمة ما تصبو إليه من رقى في
الأفكار ، وقضاء على الجهل ، ومعرفة بالحقوق الوطنية ، ولكن
عاجلته المنية ، فمات مأسوفا عليه ، بعد أن وضع أساساً للتعليم
الأولى الذي تفرعت أنواعه ، فكان منه للفتاة مدارس التربية
النسوية التي تنشد تخريج فتاة صالحة للمنزل ، وتربية الأبناء
تربية صحيحة ووطنية ، والمدارس الريفية التي ترمى إلى تخريج شباب
مسلح بالتعليم العملي الذي يؤهله للسير في الحياة بمجادة . ولا يزال
التعليم ينهض . ولو قدر له أن يشرف عليه رجال كعبد العزيز
جاويز بك لقضى على الأمية في البلاد ، ولاحتفلت الأمة
بتشجيع جثة آخر أمى في البلاد قريباً .

إضراب عمال اللواء وتطوع الشباب في إصداره

وحدث أن أضرب عمال اللواء بتحريض خصوم الحزب
الوطني يقصدون بهذا تعطيل هذه الصحيفة القوية التي لا تخشى
في الحق لومة لأثم ، والتي تهاجم كل مقصر في حقوق مصر .
وكان الخصوم يعتقدون أن صدور اللواء في أثناء إضراب عماله

ضرب من المستحيل . وكانت هذه أول تجربة لهم ، فإذا نجحت أعادوها وكرروا استعمالها .

ولكن « اللواء » تلك الصحيفة الوطنية صدرت في اليوم التالي كالمعتاد ، ولم تحتجب عن الظهور يوماً واحداً كما أراد الخصوم . فكيف كان ذلك ؟

علم الشباب المثقف من طلبة المدارس العليا بنبا هذا الإضراب ، وعلموا مقاصد هذا الإضراب ونوايا الخصوم منه ، فأبطلوا كيد الكائدين ، وذهبوا متطوعين في دار « اللواء » يعملون في صف الحروف ، وإدارة المطبعة ، وخرجت الصحيفة في موعدها ، فحجل العمال المضربون ، وعادوا إلى عملهم صاغرين ، وأخفقت مؤامرة الخصوم المؤتمرين

مدارس الشعب الليلية

كان المرحوم محمد فريد بك غيوراً على مصر والمصريين ، فكان يهتم بالشئون السياسية لينقذ الوطن ، ويهتم بالشئون الاجتماعية لينقذ أبناء الوطن .

ورأى محمد فريد أن العامل المصري مشهور بالذكاء والنبوغ ، لولا أنه حرم نور العلم والمعرفة ، فسعى جاهداً ليتيح لهذا العامل

فرصة للترقى والمعرفة ، فبدأ بإنشاء المدارس الليلية لتعليم الفقراء
والعمال بالبحر ، وفتحت أول مدرسة لذلك في بولاق ، وبدأت
الدراسة فيها في نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، وألقى المرحوم أحمد لطفي بك
(أحد أعضاء الحزب الوطنى) أول درس فيها .

أول
مدرسة
الحزب

تحدث الناس في القاهرة وفي الأقاليم عن هذا المشروع العظيم ،
وعن الغاية النبيلة ، والإخلاص العظيم الذى أخرجه إلى حيز
الوجود . إنه زعيم سياسى جعل كل همه المطالبة بجلاء المحتلين عن
وادي النيل ، ولكنه مهتم أيضاً بترقية المصريين ، وبخاصة
العمال ، ليكون لمصر منهم جيل قوى .

ياله من زعيم ! إنه عدو للاحتلال ، عدو للجهل ، عدو
للظلم . وإنه يحارب هؤلاء جميعاً وليس معه سلاح ، وليس معه
جنود إلا همه نفسه ، وقوة صبره ، وصدق إيمانه ، ومحبة لبلاده ،
وإخلاصه في جهاده .

لم يكد الحزب الوطنى ينشئ المدرسة الأولى في بولاق — وهى
مدرسة الشعب — حتى انتشرت هذه المدارس في أنحاء القاهرة
والأقاليم ، وتطوع للتدريس بها والقيام عليها نفر من الكرم
المصريين ، وخيرة الشبان المتعلمين ؛ فنمت وترعرعت ، وشعر

العامل المصرى والصانع المصرى لأول مرة بأن مصر تحنو عليه ،
وتعمل لرفيه وسعادته .

ولكى تعرف مبلغ عنايته بشئون العمال والصناع المصريين اقرأ
ما قاله فى خطبة المؤتمر الوطنى بتاريخ من ٧ يناير سنة ١٩١٠ ، قال :
« ... ليصبح الصناع والمزارع فى مأمن من الفقر والتكفف
عند الشيخوخة أو المرض يجب فتح المدارس الليلية فى المدن والقرى
لتعليمهم حقوقهم وواجباتهم ، وتفهمهم أهمية النقابات ،
وشركات التعاون .

ولقد بدأ حزبنا المبارك فى تنفيذ هذه الفكرة ، فأنشأ فى
العاصمة أربع مدارس للصناع ، فى أقسام الخليفة وبولاق وشبرا
والعباسية ، تحوى كل منها نحو مائة وعشرين تلميذاً من حرف
مختلفة ، وصناعات متباينة ، فتجد النجار بجانب صانع الأحذية ،
وقاطع الأحجار يكاتف الطباخ ، وهكذا . وكلهم متشوقون للتعليم ،
باذلون جهدهم فى التحصيل حتى إن الطالب منهم ليمكن من
القراءة والكتابة فى أقل من ستة شهور . وقد انتشرت هذه
الحركة فى كثير من مدن القطر وقراه ، بفضل الخالصين العاملين
من رجال الحزب الوطنى ومن غيرهم .

ولم يكتف أنصار العمال بذلك ، بل أسسوا بقسم الخليفة

(جمعية) للخطابة تعقد جلساتها مساء كل يوم خميس ، ليخطب فيها المعلمون والعمال أنفسهم بعبارة تكاد تكون صحيحة . ولقد حضرت إحدى هذه الجلسات مع بعض الإخوان ، وسمعتنا ما ألقاه اثنان من أعضائها ، وهما من صانعي الأحذية ، وكان كلامهما دائراً على وجوب إتقان الصناعة لمزاومة الأجانب .

وسنسمى في عامنا هذا الجديد في تعميم هذه المدارس (والجمعيات) في أقسام المحروسة ... فعليكم إخواني بنشر مبادئ التعليم بين هذه الطبقة التعسة ، وتأسيس المسكاتب الليلية ... وعلى الشبيبة الحرة التبرع بالقليل من وقتهم في إلقاء الدروس والمحاضرات النافعة ، حتى يترقى العامل الفقير ، ويدرك أن له حقاً في أن يعيش عيشة لا كعيشة البهائم » .

أرأيت كيف كان الرجل مشغولاً ؟

أرأيت كيف كان يحارب الاحتلال ، وأعوان الاحتلال من المصريين أنفسهم ؟

أرأيت كيف كان يضيق ذرعاً بمن يتعاونون مع الاحتلال ؟

أرأيت كيف كان يسعى لينهض بالصانع المصري ، والعامل

المصري ، والفلاح المصري ؟ ويحاول بنشر العلم بينهم أن يزيل عنهم عار الجهل .

أرأيت كيف كان يتألم لشيخ يتكفف ، أوقير يمرض ، أو
عامل لا يجد عملاً ؟ فسعى لتعليم الفقراء ، وإنشاء نقابات للعمال ؟

ألا ترى لذلك العمل الذي مضى عليه أكثر من ثلث قرن
أثراً في حياتنا الحاضرة ؟ ألا ترى أن جهوده في نشر التعليم كانت
أساساً لجهادنا في نشر التعليم ، ومكافحة الأمية ، وتعميم التعليم
الإلزامي ؟ ألا ترى أن قضية العمال التي تشغل الأذهان اليوم إنما
أظهرها ودعا إليها المرحوم محمد فريد يوم كان العمال في ظلام
الجهل نائمين ؟

ألا ترى أن حركة التعاون ، وإنشاء النقابات ، والجماعات
التعاونية إنما هي ثمرة غرسه ؟ !

علموا الأمة

طاف محمد فريد بمعظم دول أوروبا ، فزار فرنسا وألمانيا
وسويسرة وبلجيكا والدانمركة ليرفع صوت مصر ، ويدافع عن
قضية مصر .
وقد أدرك وهو بهذه البلاد أن المصريين لا يقولون ذكاء
ولا نشاطاً عن هؤلاء الغربيين ، وإنما سبقونا بالعلم ، ولا سبيل

لتقدمنا إلا بنشر التعليم بين طبقات الأمة ، لا فرق بين غنى وفقر . فالعلم سبيل الحياة الصحيحة ، والحياة من حق الجميع . وإنك لتعجب ويملوك العجب حين تعلم أن محمد فريد هو المصرى الأول الذى نادى بوجوب جعل التعليم الابتدائى إلزاميا بالجان للبنين والبنات على السواء ، نادى بذلك فى سنة ١٩١٠ ؛ أى منذ أكثر من ثلث قرن .

وبعد ثلث قرن من الزمان تحققت أمنية من أمنائه العظيمة فى التعليم ، فجعل التعليم الابتدائى بالجان . وإن فريقاً من المصريين لكارهون نشر التعليم يجادلونك فى الحق بعد ما تبين . قال رحمه الله فى خطبة المؤتمر الوطنى فى ٧ من يناير سنة ١٩١٠ :

نشر التعليم الابتدائى :

« إن نشر التعليم الابتدائى بين جميع طبقات الشعب من أقوى الوسائل لترقية الأمة ، وأقرب السبل لإنالتها الحرية والاستقلال . ويجب أن يكون قصدنا جميعاً الوصول إلى جعل التعليم الابتدائى إلزاميا ومجانيا لكل مصرى ومصرية . أقول مجانياً لأنه لا يمكن التوفيق بين الإلزام ودفع أجرة التعليم ؛ لأن جعله مجانياً للفقراء وبأجرة للأغنياء فيه جرح لمواطنى الفقراء من التلاميذ الذين

يرون أنفسهم محترمين في نظر إخوانهم ومعلميهم .

فالديمقراطية الحققة ، والمساواة الحقيقية ، تقضيان بأن يكون التعليم الابتدائي مجانيا لجميع طبقات الأمة فقيرها وغنيها بلا تمييز ؛ حتى يشب التلاميذ على حسب المساواة ، ويعرفوا منذ نعومة أظفارهم أن لا تفاوت بين الناس إلا بخدمة الأمة ، وأن أقربهم إلى الله أنقاهم لا أغناهم .

ولا تنس أن التعليم الابتدائي وحده غير كاف لحاجة الأمة ؛ فإن الأمم لا ترقى إلا بالتعليم الثانوي والعالى اللذين يخرجان الطبقة الراقية التى عليها المعول فى إدارة الأمور العامة ... »

ذلكم هو منهاج محمد فريد فى النهضة التعليمية بمصر . وهو منهاج لو طلعت به علينا اليوم وزارة المعارف أو برلمان الأمة لكبرنا وهللنا وهتفنا .

نعم لقد نهضنا بالتعليم فى هذه الفترة نهوضاً عظيماً . ولو كان محمد فريد حياً ورأى ثمار هذه النهضة لقر عيناً ، ونعم بالآ .

غير أننا يجب أن نعترف بأن هذه النهضة التعليمية إنما هى امتداد للحركة التى قام بها محمد فريد ، واستجابة للمطالب التى أعلنها فى خطبه . فكما أنه هو البادئ بحركة مكافحة الأمية فكذلك هو البادئ بحركة نشر التعليم الحق بين طبقات الأمة جميعاً .

حقاً لقد قام محمد فريد وحده بما لم تقم به أمة .

الإصلاح الاجتماعي

التعليم — الصحة — الاقتصاد — التعاون

لم يكن محمد فريد من رجال السياسة فحسب ، بل كان مصلحاً وطنياً همه أن يرقى بوطنه ، وأن ينهض بالمصريين حتى يكونوا كغيرهم من الدول إن لم يسبقوهم .

كان يرى أن الحركة السياسية في البلاد يجب أن تسيرها حركات إصلاح : اجتماعية ، واقتصادية ، وتعليمية ، وتعاونية . بل كان يرى أن هذه الحركات يجب أن تكون شرطاً للنجاح في القضية الأخرى وهي قضية الحرية والاستقلال والدستور .

لهذا سعى سعيه المشكور في إنهاض التعليم ونشره في البلاد . أما الدستور الصحي فإليك بعض آرائه فيه في خطبة المؤتمر الوطني سنة ١٩١٠ : تكلم عن إهمال الحكومة للأحياء الوطنية بالقاهرة ، والشئون الصحية العامة ، ودعا إلى إنشاء مجلس بلدى بالعاصمة ، قال :

« ثبت بالإحصاء أن متوسط الوفيات في السنة يتراوح بين ٦٠ و ٨٠ في الألف ، مع أنها في لندرة ١٨ ، وفي باريس ٢٠ ،

وفي باقي مدن أوروبا الكبرى لا تزيد على ٢٥ في الألف مطلقا .
وليس يرجع هذا إلى فقر الميزانية المصرية ، بل إلى إهمال
مصلحة الصحة ، وصرفها المبالغ المخصصة لها في الأحياء التي
يقطن بها الإفرنج ، وإهمالها باقي الأحياء . فبينما تجد شوارع
(جاردن ستي) بالقصر العالي مرصوفة ، وبها الأنوار تتلألأ
حيث لا ساكن ولا أنيس ، تجد أحياء برمتها لا ينفذ إليها نور
الشمس نهاراً ، ولا يوقد فيها مصباح ليلاً ، ولا تعرف للكس
والرش اسماً ، مع أن الكل سواء في دفع عوائد الأملاك . ومن
الظلم البين أن سكان الحارات يلزمون بإبقاء المصابيح على أبوابهم
بمصرفات من طرفهم مع دفعهم العوائد ، وهذه الحالة ظاهرة
للعيان ، لا تحتاج لشرح طويل فكلكم تشتكون منها ، كما
تشتكون من كثرة وفيات الأطفال بسبب هذا الإهمال ، وتراكم
الأوساخ في الحارات وداخل البيوت ، ولا دواء لهذه الحالة السيئة
إلا الإسراع بتأسيس مجلس بلدي ينتخبه السكان ، ولكن
لا على طريقة الانتخاب المتبعة بالإسكندرية ؛ تلك الطريقة التي
جعلت كلمة الأجنبية هي العليا ، وكلمة الوطني هي السفلى ، بل على
طريقة تضمن أن يكون لأصحاب البلاد النفوذ الحقيقي فيه ، فلا
تبذر أموال المدينة على إنشاء شوارع بمجهات لا سكان بها كشارع

البحر الأعظم الذى سيكلف الحكومة خمسين ألف جنيه ، وغير ذلك من الأعمال التى تستفيد منها بعض شركات المضاربة التى جرت الخراب على الأمة » .

ومن هذا المنهاج الصحى نستفيد عبرا كثيرة :
فإنشاء مجلس بلدى بالقاهرة فكرة نادى بها عشرات النواب والسيوخ ، وطالبت بها الصحف ، وكتب فى ذلك تقارير ومذكرات ، وانهقدت لها لجان فى أوقات مختلفة .
ولكن المصرى الأول الذى نادى بذلك هو محمد فريد .
نادى بذلك فى خطبته بالمؤتمر الوطنى سنة ١٩١٠ ، فكان أول نداء للإصلاح فى هذا الموضوع .

وإنه لفخر كبير لهذا الرجل أن ينادى بإنقاذ الطفولة فى بلد كان الطفل فيه نسيا منسيا . أفتراه جديرا بأن نسميه واضع النواة الأولى لجماعات إنقاذ الطفولة ، والطفولة المشردة ؛ لأنه نور الرأى العام فى مصر ، ونبهه إلى الخطر العاجل والآجل ، من كثرة وفيات الأطفال عندنا ، وموازنته بين مصر وغيرها من الدول ؟

سبحانك ربى هذا رجل يعمل عمل أمة !
أفلا ترى معى أيضا أن هذا الرجل شعبى بطبعه ، إذا تكلم عن المساواة والديمقراطية فإنما يتكلم عن صفات أصيلة فيه

لا يتخذها ألفاظا للتجارة السياسية ، والدجل السياسى ، وهو عن حقيقة مدلولها بعيد .

هذا الرجل العظيم ، (ابن الباشا الكبير) ، الفنى صاحب الثراء والجاه ، يخرج من فمه كلام هو نفس الكلام الذى ينطق به لسان الشعب ، ويشرح آلامه ، فإذا بها نفس الآلام التى يحس بها أفراد الشعب حين يوازن بين الأحياء الوطنيه ، والأحياء الأخرى كجاردن ستي .

سبحان ربى — هذا رجل من سكان القصور ، فمن ذكره
سكان الحارات ؟

الإصلاح الاقتصادي

الميزانية :

« لا يمكن لمجلس الشورى أن يفحص عن الميزانية فحفا جديا إلا إذا قدمت إليه في أول انعقاده ، وفحص عنها في جلساته العمومية بنفسه أو بلجنة من أعضائه تنتقدها بابا بآباً ، وفصلا فصلا ، وتوازن بين ما تنفقه مصر وما تنفقه الدول المتقدمة كفرنسا مثلا ، وتوازن بين رواتب الموظفين الكبار هنا وهناك ، لترى أن مال المصريين أصبح نهبا لمن طلب ؛ إذ ترى القلم له مراقب ورئيس ونائب رئيس ومساعد نائب رئيس ، ومع هؤلاء الرؤساء الأربعة كاتبان أو ثلاثة .

والأمثلة على هذه التصرفات كثيرة لا يتحمل نطاق هذه العجالة شرحها ، وسيقوم اللواء بهذه المهمة خدمة للأمة . »

هذا بعض ماقاله محمد فريد عن الميزانية في خطبة المؤتمر الوطني سنة ١٩١٠ . ولقد هاله رحمه الله أن يرى أموال الدولة تنفق بلا رقيب أو محاسب على رئيس ومساعد للرئيس ، ونائب للرئيس ومساعد لنائب الرئيس .. الخ وكاتبين أو ثلاثة ...

فليتة كان معنا الآن ليرى كيف أن الأمر قد تجاوز كل حد ، وأن السكاتبين أو الثلاثة أصبحوا عشرة أو عشرين .

الفلاح :

وتكلم عن فداحة الضرائب التي تصيب الفلاح بالنسبة لمجموع الممولين ، فقال :

« ومن الغريب أن التجار لا يدفعون شيئا ، وكذلك المصارف وأصحاب الأموال المنقولة . فمن اشترى بجميع أمواله أسهما من البنك العقاري أو الأهلى مثلا لا يدفع للحكومة شيئا ، في حين أن الفلاح الصغير الذي يملك قيراطا أو قيراطين يدفع ثلث إيراده . وإذا نقص المحصول أو أكلته الدودة باع ماشيته لدفع غائلة الصراف ، ومنعه من بيع ملكه تسديداً لمال الحكومة الذي يبذر باليمين والشمال . فيجب على الكتاب والخطباء أن يترقوا هذا الباب ، ويشرحوه شرحا وافيا ، حتى يقف الرأي العام على ما يصيب الفلاح من الظلم الفادح بتحميله ما يقصم ظهره من الضرائب ... ويجب على المشتغلين بتشكيل النقابات الزراعية أن يهتموا بإيجادها (وتكوينها) حتى تستغل بتخفيف الضرائب عن الأطيان ، وتحسين حالة الفلاح المسكين الذي يكد طول

الضرائب

سورة نوزيع

نقابات
زراعية

سنته هو وزوجته وأولاده ، ولا يحصل إلا على القوت الضروري من الذرة . وإذا نقص محصول القطن عن سداد ما عليه من الإيجار أخذ منه محصول الذرة كله أو بعضه .

فانظروا إلى هذا الفلاح التعس الذي عليه أساس العمران بمصر ، والذي لم تتغير حالته المعاشية بل هي حياة بؤس وشقاء ، وجهل لا يماثله فيها فلاح آخر . الفلاح المصرى أتعس فلاح في العالم ، أتعس من الفلاح الروسى الذى يضرب بشقائه المثل . ولا خلاص له من هذه الحالة إلا بنشر التعليم الابتدائى وجعله إجباريا ، وبتشكيل نقابات زراعية للدفاع عن حقوقه أمام الحكومة ، وأمام الملاك الذين يزيدون عليه الإيجارات بمناسبة وبغير مناسبة ، وأمام المرابين الذين يأخذون ما يبقى لهم من جشع الملاك وظلم الحكومة .

أستغفر الله ! الفلاح الروسى الذى يشير إليه هذا الزعيم قد تطورت به الأيام والأحداث ، فخلق لحيته الطويلة ، واشتغل في حقله بالآلات الحديثة ، فزاد إنتاجه ، وحسن حاله ، وتعلم تعليما إجباريا بالجان ، فأتاحت له الفرصة للترقى . وبهذا استطاع الفلاح الروسى هو وصاحبه العامل الروسى أن يعاونا الجيش الروسى على إبادة الجيوش الألمانية التى زودها العلم بكل سلاح .

وبقى الفلاح المصرى المسكين هو المثل الوحيد للذل والمرض
والفقر والجهل .

على أن الحكومات المتعاقبة بدأت تنفذ ما أشار به محمد فريد
من تخفيف الضرائب عن صغار الفلاحين ، ومحو الأمية بين
أبنائهم ، ولكننا نتوق إلى إصلاح شامل ، يجعل من الفلاح
المصرى قوة أساسها الصحة والعلم . ويجب أن يستخدم الآلات
الزراعية فى تخفيف أعبائه ، والاقتصاد فى وقته ، حتى تتاح
له فرصة يستزيد فيها من المعرفة ، وينظر خلالها إلى الحياة .

ماذا يؤرقنى

كان محمد فريد يطيل التفكير فتظهر على وجهه علامات
الحزن والسكابة . وكثيراً ما كان يقضى ليله ساهراً مفكراً
محزوناً محسوراً ، فماذا أهمه ؟ وماذا أحزنه ؟

ثلاث كلمات هى التى أقلقته ، وشغلت كل وقته وتفكيره ،
وهى : الدستور ، الصحافة ، والجلاء .

الدستور - الصحافة - الجلاء

فأما الدستور فقد تقدم بطلبه إلى الخديو ، وهو حاكم البلاد الشرعي . وقد أيدته الأمة المصرية في طلبه ، فكتبت مئات من العرائض ، وفيها كلها تلتمس من الخديو الدستور . وأما الصحافة فكانت هي المنبر الذي يذيع الأحرار عليه أفكارهم ، وهي مدارس الشعب يتلقى عليها الناس دروس الوطنية في الصباح وفي المساء .

لهذا لم يكن عجيباً أن تعمل الحكومة إذ ذاك على تقييدها ، والحد من حريتها ، فوضعت قانوناً يقضى بإحالة تهم الصحافة إلى محاكم الجنايات ، بعد أن كانت من اختصاص محاكم الجنح .

وكان من النتائج الأولى لإحالة جنح الصحافة إلى محاكم الجنايات أن حوكم فريد أمامها وحكم عليه كما سيأتي . وأما الجلاء فقد تقدم بطلبه إلى المحتلين أنفسهم ، وجعل الاحتلال قضية تولى هو الدفاع عنها ، واستعان في كسب قضيته بتنوير الرأي العام في بلاد المحتلين أنفسهم ، وتنوير الرأي

العام في أوروبا ، حتى يكون للقضية المصرية أنصار في كل
عواصم أوروبا الغربية .

ولهذه الغاية سافر إلى أوروبا ، وطاف بمعظم حواضرها ،
وأقام المجتمعات والحفلات ، وألقى الخطب والبيانات ، فأحدثت
هذه الحركة ضجة ، وأصبحت لمصر قضية تحدث بها الصحف
الغربية ، والأحرار الغربيون ، والبريطانيون أنفسهم .

حبس الزعيم

الاستعمار قد نجح في إيجاد سياسة الوفاق ؛ فأصبح الخديو
يسعى جاهداً ليبقى على هذا الود الطارئ ، فهو يصطفي من
المصريين من يؤيدون هذه السياسة ، وأغلب الظن أنه قد وجد
من بين المصريين عدداً غير قليل أيدوه وناصروه .
فأما الوزارة فكان ههما أن تناصر الإنجليز ، فإذا انضم إليها
الخديو وفريق من المصريين الذين لم يصل ماء النيل إلى قلوبهم
فيظهرها قوى عضدها ، واشتد ساعدها ، وهان عليها أن تنصب
شباكها للعبث بالمجاهدين ، وكم أفواه الأحرار . ومن يعينها من
الأحرار والمجاهدين إلا محمد فريد وبعض أصحابه ؟

ولقد وفقت الوزارة بقوة الإنجليز وتأييد الخديو إلى إسكات

محمد فريد .

ما أقوى الخصوم وما أضعف الخصم !
أستغفر الله بل ما أقوى الخصم ! وما أضعف الخصوم !
لقد كان فريد قويا بحقه . وكان الخصوم ضعافاً بباطلهم .
هذه الأمة تؤيده ، وهذا الحق يسنده ، وهذا القانون يحميه .
والحكومات الجائرة تلجأ فيما تلجأ إلى القوانين فتغيرها
وتبدلها ، وتحذف منها وتزيد عليها ، حتى تجعلها أداة إرهاب وتعذيب .
وكان من نتيجة العبث بالقوانين ، والتعننت في تطبيقها ،
والإصرار على التحدى والظلم ، أن سجن محمد فريد ستة شهور
كاملة ، قضاها بين جدران السجون كما لو كان مجرمًا آثمًا .
وإنك لتضحك وتفرق في الضحك ، أو تبكي وتفرق في
البكاء ، أو ترتى وتجيد الرثاء ، إذا عرفت بواعث هذه
الحكمة ، وأسباب هذا السجن ، وشر المصائب ما يضحك .

درس في الوطنية

أرأيت أيها القارئ الكريم أو سمعت أن زعيماً كمحمد فريد
يحاكم ويسجن لأنه كتب كلمة هي اليوم مما يدرس في المدارس ،

وينشر في الصحف والمجلات ؟ اقرأ هذه الكلمة ؛ لتعجب :
كيف حكمت المحكمة بسجن قائلها ؟

« تأثير الشعر في تربية الأمم »

« الشعر من أفعال المؤثرات في إيقاظ الأمم من سباتها ، وبث روح الحياة فيها ، كما أنه من المشجعات على القتال ، ومن حكم الإقدام والمخاطرة بالنفس في الحروب . ولذلك نجد الأشعار الحماسية من قديم الزمان شائعة لدى العرب وغيرهم من الأمم المجيدة كالرومان . »

« وليس من ينكر أن الأنشودة الفرنسية التي أنشأها الضابط الفرنسي « روجيه دي ليل » وسميت المرسيليز ، كانت من أقوى أسباب انتصار فرنسا على ملوك أوروبا ، الذين تألبوا لإخماد روح الحرية في مبدأ ظهورها »

« لذلك كتب الكاتبون منا كثيراً في ضرورة وضع القصائد والأغاني الوطنية ليحفظها الصغار ، ويترنموا بها في أوقات فراغهم ، ولينشدوها في ساعات لعبهم ، بدل هذه الأغاني والانشيد التي يرددوها أطفال الأرقعة خصوصاً في ليالي شهر رمضان المبارك ، كما كتبوا في لزوم تغيير الأغاني التي تنشد في الأفراح ، وكلها دائرة

حول نقطة واحدة هي الغرام ، ووصف المحبوب بأوصاف ما أنزل
الله بها من سلطان » .

« لقد كان من نتيجة استبداد الفرد ، سواء في الغرب أو في
الشرق ، إماتة الشعر الحماسي ، وحمل الشعراء بالعطايا والمنح على
وضع قصائد المدح البارد ، والإطراء الفارغ ، للملوك والأمراء
والوزراء ، وابتعادهم عن كل ما يربى النفس ، ويفرس فيها حب
الحرية والاستقلال . كما كان من نتائج هذا الاستبداد خلو خطب
المساجد من كل فائدة تعود على المستمع ، حتى أصبحت كلها تدور
حول موضوع التزهيد في الدنيا ، والحض على الكسل ، وانتظار
الرزق بلا سعى ولا عمل » .

« تنهت لذلك الأمم المغلوبة على أمرها ، فجعلت من أول
مبادئها وضع القصائد الوطنية ، والأناشيد الحماسية باللغة
الفصحى للطبقة المتعلمة ، وباللغة العامية لطبقة الزراع والصناع
وغيرهم من العمال غير المتعلمين . فكان ذلك من أكبر العوامل
على بث روح النهضة الوطنية بين جميع الطبقات » .
« ويسرني أن هذه النهضة المباركة سرت في بلادنا ، فترك
أغلب الشعراء نظم قصائد المديح للأمراء والحكام ، وصرفوا
همهم ، واستعملوا مواهبهم في وضع الأشعار الوطنية ، وإرسالها في

وصف شئون السياسة التي تشغل الرأي العام . وقد لاحظت
(وطنيتي في طليعة هذه النهضة الميمونة الرشيدة) .

« وما يزيد سرورى أن شعراء الأرياف وضعوا عدة أناشيد
وأغان فى مسألة دنشواى ، وما نشأ عنها ، وفى المرحوم مصطفى
باشا كامل ومجهوداته الوطنية ، وفى موضوع قناة السويس ورفض
الجمعية العمومية لمشروعها . وأخذوا ينشدونها فى سمرهم وأفراحهم
على آلاتهم الموسيقية البسيطة ؛ وهى حركة مباركة إن شاء الله ،
تدل على أن مجهودات الوطنيين قد أثمرت ووصل تأثيرها إلى
أعماق القلوب فى جميع طبقات الأمة ، ويبشر باقتراب زمن
الخلاص من الاحتلال بإذن الله » .

« فعلى حضرات الشعراء أن يقلعوا عن عادة وضع قصائد
المديح فى أيام معلومة ، ومواسم معدودة ، وأن يستعملوا هذه
المواهب الربانية العالية فى خدمة الأمة وتربيتها ، بدل أن
يصرفوها فى خدمة الأغنياء ، والتملق للأمرء ، والتقرب من
الوزراء . فالحكام زائلون ، والأمة باقية ، والسلام على من سمع
ووعى ، ووفق لخدمة بلاده وسعى ، فإن سعيه سوف يرى ، ثم
يجزاه الجزاء الأوفى » .

هذه هي الكلمة التي حوكم المرحوم محمد فريد من أجلها .
قرر ما يقرره كل النقاد من أن الشعر يجب أن يكون في طبيعة
كل نهضة ، يحدوها ويشيرها ، وينفخ فيها ويوجهها .
وقرر أن الشعراء الذين لا يفتأون يصيحون بقريضهم ونظمهم
حول قصور الأغنياء وموائد العظماء إنما يخدمون بطونهم ،
ويبيعون مواهبهم رخيصة لقاء لقمة رخيصة زهيدة .
وقرر أن الأدب الشعبي هو غذاء الشعب الروحي والوطني ،
وأنه يجب أن يعنى بهذا الأدب ، وبالأغاني الشعبية ومرامها .
وقرر أن الأدب إذا خلا من القوة الروحية ، والغاية النبيلة ،
أصبح قليل الجدوى .

وهذا الذي كتبه محمد فريد وحوكم من أجله هو الذي
يشغل بال المصلحين المصريين الآن ، ويعملون على إشاعته في
الناس ، وإذاعته بينهم في المدارس والمعاهد ، وفي الصحف
والجلات والمؤلفات .
ولكن حكومة العهد البائد رأت فيه ما يستحق العقاب ،
ويستوجب المحاكمة .

كان هذا درس الوطني الأدبي الجليل مقدمة لديوان للشيخ
على الغاياتي ، ظهر في سنة ١٩١٠ ، فحوكم صاحب الديوان ، وحوكم

مقرظ الكتاب الشيخ عبدالعزیز جاویش ، فلم یکن بدُّ من
محاكمة صاحب المقدمة وهو محمد فريد .

ولكن فريداً كان غائباً في أوروبا ، يدعو الناس ويجمعهم
ويخطب فيهم ، ويشرح لهم قضية الوطن المغصوب ، ينتقل من
عاصمة إلى عاصمة ، ويعلو منبراً بعد منبر ، ويشير القوم في حرب
أوروبا لتحرير مصر ووادي النيل .

كان فريد مشغولاً بالقضية الكبرى في أوروبا ، ولكن
الوزارة المصرية كانت مشغولة بهذه القضية تدبرها وتحوك
حبالها ، وتنصب الشباك لتصطاد هذا الفريد بمجرد عودته إلى
أرض الوطن . وكان هذا هو الجزاء الذي تقدمه الأمم لزعمائها
وأبطالها ، حين يعودون من مشقة الجهاد متعبين مكدودين !
ألا في سبيل الله جهادك أيها البطل ، وفي سبيل الله ما أنفقت
من وقت وجهد وصحة ومال .

كان النائب « محمد توفيق نسيم » يستعد وفريد في أوروبا
للتحقيق معه بمجرد حضوره . وأغلب الظن أن نسيم « باشا »
أجهد نفسه ، وكدّ خاطره ، وأعياه البحث ، والتعنّت في البحث
عن عبارات يقدم بها فريد للمحاكمة على قول يستحق عليه
التكريم .

لا ندري ماذا قال محمد توفيق نسيم في اتهمه لفريد؟
ولكنني أعلم أنه وقف يتكلم أكثر من نصف ساعة.

لا جرى النيل في نواحيك يا مصر

ر ولا جادك الحيا حيث جادا

أنتِ أنبتِ ذلك النبات يا مصر

ر فأضحى عليكِ شوكا قتادا

أنتِ أنبتِ ناعقاً قام بالأم.

س فأدمى القلوب والأكبادة

وسيق فريد إلى السجن ، فقضى فيه ستة شهور كاملة .

وكان هذا بمثابة تكريم له عقب عودته من أوروبا .

ولكن هذه المحاكمة دلت على مسائل كثيرة :

دلت على أن الحكومة المصرية في ذلك الوقت كانت

حرباً ضد الحركة الوطنية ورجالها . فإذا عذرنا الإنجليز لأنهم

يخدمون بلادهم ، فلا عذر للحكومة المصرية ورجالها .

إن الأمة المصرية كانت في يقظة ، وإن الشعور الوطني

كان على أشده ، وإن التعليقات الوطنية التي نادى بها فريد

قد أثمرت .

انظر إلى تلك الرسالة الصغيرة التي كتبها إحدى كريمات
الزعيم وهو في أوروبا تدعوه للحضور إلى مصر فتقول :
القاهرة في ١٤ من أغسطس سنة ١٩١٠ :

« ولنفرض أنهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا
به على الشيخ عبد العزيز جاويش ، فذلك أشرف من أن يقال
إنكم هربتم ، وما تحملتم الهوان في سبيل وطنكم ... وأختم
جوابي بالتوسل إليكم باسم الوطنية والحرية التي تضحون بكل
عزيز في سبيل نصرتها أن تعودوا ، وتحملوا آلام السجن » .
وكان ذلك ردا على إذاعة المرجفين ، وكانوا يتمنون أن
تكون هذه المحاكمة سبباً في بقاء الزعيم بأوروبا بعيداً عن بلاده .
فأما يقظة الرأي العام وتنبه ضمير الأمة ، فيظهران من القصائد
التي أرسلها الشعراء في هذا الوقت تعبيراً عن شعورهم نحو الفقيد .
قال الشاعر العظيم أحمد نسيم بعنوان :

إلى الرئيس في سجنه

يا ليت سجنك لم يكن بمقدّر فاصبر على المقدور ستة أشهر
إني نظرتك في اتهامك واقفاً فظننت أنك واقف في المنبر
لتقول شعبي أو بلادى إننى هوا كما بين اللظى المتسعر

لو كنت ممن تاجروا بضميرهم للعبت لعباً بالنضار الأصفر
أو كنت ممن يطلبون مراتباً لساوت في العلياء نجم المشتري

* * *

يكفيك عطف العالمين ووجدهم من أكبر يطاء الثرى أو أصغر
وقضى محمد فريد هذه المدة في السجن يتلو القرآن الكريم ،
ويدرس اللغة الألمانية ، ويطالع الكتب

محمد فريد في السجن

ثارت الخواطر في مصر جميعها لهذا الحكم الجائر بحبس
الزعيم ، وشعر الوزراء وأنصارهم أنهم ارتكبوا أمراً عظيماً ، وأن
الرأى العام يقظ ومتنبه ومستنكر لهذا الحادث .
فأذاعوا أنهم يرغبون في إصدار عفو عنه . وفعلاً بدأت
المفاوضات في ذلك :

ففي أحد الأيام نودى الزعيم محمد فريد من غرفة سجنه
ليقابل مدير السجن ، ودار بينهما الحديث التالى :
كولس باشا (مدير السجن) : هل هناك ما تشكو منه
يا حضرة الرئيس ؟

ليس عندي ما أشكو منه والحمد لله .
هل أستطيع أن أهنيء لك بعض أسباب الراحة ؟
فأبدى له الرئيس بعض ملاحظات أجابه إليها .
كولس باشا : أرجو حضرة المأمور أن يتنحى جانبا .
فانتحى المأمور ناحية .
ألا ترى يا حضرة الرئيس أن من كان في سنك يحتاج إلى
الراحة في بيته وبين أبنائه بدلا من التشريد في السجون ؟
فريد : لا بد للمجاهدين من التشريد والتعذيب .
مدير السجون : ولكن في إمكانك أن تتقى كل هذه
المتاعب لو خلدت إلى السكينة ، وغيرت خطتك . وحينئذ نحلى
سبيلك حالا ، وتعود إلى بيتك وأبنائك .
فريد : إن ما تطلبه مستحيل .
مدير السجون : إني لا أطلب منك تغيير مبادئك ، بل
تخفيف لهجتك .
فريد : إن هذا مستحيل .
مدير السجون : أنت تريد إذا قضاء الشهور الستة كلها
في السجن .
فريد : نعم ، وأزيد عليها يوما إن أردتم .

فأدرك (كولس باشا) أن لا سبيل إلى مساومته ، وانصرف .
و بعد بضعة أسابيع زاره في السجن رسول موفد من قبل
الخديو ليعرض عليه مسألة العفو ، وطلب إليه أن يكتب طلباً
بذلك . فأبى الزعيم ، ولام الرسول على محاولته تلك . وقال له :
« أنا لا أطلب العفو ، ولا أسمح لأحد من أسرتي بطلبه عني .
وإذا صدر العفو فلن أقبله » .

بعد السجن

لم يكن السجن لينال من زعيم مثل محمد فريد ، أو يضعفه ، أو
يوهن من عزمه ، ولكن زاده حبا للنضال ؛ فقد كتب يوم
خروجه من السجن مقالا يدل على إيمانه بحق الوطن ، وبال قضية
التي يعمل لها ، ويعيش من أجلها . قال بعنوان : «

من سجن إلى سجن

« مضى على ستة أشهر في غيابات السجن ، ولم أشعر أبدا
بالضيق إلا عند اقتراب أجل خروجي ، لعلمي أني خارج إلى
سجن آخر ، هو سجن الأمة المصرية ، الذي تحده سلطة الفرد ،
ويحرسه الاحتلال » .

سجن
الأمم
المصرية

« نعم إن كل أمة هضم حقها ، وحرمت دستورها ، واستبدت بإدارتها حكومة فردية تعززها الجيوش الأجنبية لى أمة سجيئة ، ما دامت أمورها بغير يدها ، تحكمها وزارة لا تتفق أعمالها مع شعور الأمة ، ولا مع حاجات البلاد . ويقول عنها عميد المحتلين أن لا وظيفة لها إلا تنفيذ نصائح (أى أوامر) حكومة جلالة الملك . »

« حقيقة لم أشعر بأى انشراح عند حلول أجل مفارقتى لهذه الغرفة الضيقة التى قضيت بها ستة أشهر قريه ، أى مائة وستا وسبعين ليلة كاملة ؛ لعلنى أنى خارج إلى سجن أضيق ، ومعاملة أشد ؛ إذ أصبح مهددا بقانون المطبوعات ، ومحكمة الجنايات ، محروما الضمانات التى منحها القانون العام للقتلة وقطاع الطريق . فلا أثق أنى أعود لأسرتى إن صدر منى ما يؤلم الحكومة من الانتقاد ، بل ربما أؤخذ من محل عملى إلى النيابة ، فالسجن الاحتياطى ، فمحكمة الجنايات ، إلى السجن النهائى . وستبقى حالتنا كذلك حتى نسترد الدستور ، وتفى انجلترا بوعودها المتكررة ، فتجول عن بلادنا » .

« قضيت هذه المدة فى السجن دون أن أشعر بأقل ضيق . وكنت كلما شعرت بأن شيطان الضجر يسعى إلى أن يجد إلى نفسى سبيلا ، تذكرت ما قاساه خدام الوطن فى كل البلاد مثل

الدستور
هو
الضمان

الإيطاليين والفرنسيين ، وأحرار الأتراك في عهد عبد الحميد .
وما يقاسيه الآن أحرار بولونيا والروسيا في سيبيريا وفي السجون
من أنواع العذاب ، كالضرب بالسياط ، والموت جوعاً ،
وهلم جرا . . . »

« فأقول في نفسي إن هذا الحبس لأشياء في جانب حبي لمصر ،
أمي العزيزة ، فيذهب عني الضجر ، وتزداد غريمتي اشتداداً » .
« وحكم على بالحبس ، فلقيت من قوى عطفاً عظيماً ، ومن
جميع الجرائد المحلية على اختلاف مذاهبها ، وتباين لغاتها ، ميلاً
شديداً ، ومن جرائد أحرار العالم الأوروبي ، والعالم الإسلامي
أجمع تقديراً لحكم محكمة الاستئناف ، لم يسمح قانون المطبوعات
لجرائدنا بنقله ؛ فوجب على شكرهم أجمعين شكراً جميلاً » .
« ظن أعداء الحزب الوطني وخشي محبونا أن يكون للحبس
أقل تأثير في سير الحزب ونموه ، وانتشار مبادئه الحقبة بين طبقات
الأمّة ، ووصولها إلى أعماق قلوبها ، ولكن لله الحمد ؛ فقد برهن
حزبنا في أثناء اعتقاله بين جدران هذا السجن على أنه حزب
الوطن ، حزب الشعب ، لا يؤثر فيه حبس رئيس ، كما لم يقف
سيره موت مؤسسه رحمه الله . فإن حبس أو مات رئيس قام
بذله رؤساء متضافرون على مؤازرته ، متعاونون على نصرته ،

عاقدون الخناصر على الوصول به إلى غايتنا وغاية كل وطني
— ولو كان منافقا — هي الجلاء والدستور «

المؤتمر الوطني

اجتمع المؤتمر الوطني (الجمعية العمومية السنوية للحزب
الوطني) صباح يوم الجمعة ٢٢ من مارس سنة ١٩١٢ ، بدار العلم
برئاسة الزعيم محمد فريد ، وقد ألقى فيه خطبة جامعة كانت آخر
خطبة ألقاها بمصر قبل الحرب العالمية الأولى قال :

« يقول أعداء الحزب الوطني إن همته قد فترت ، وإنه لم
يحتمل ما أصابه من حبس بعض أعضائه أولاً ، ومن تعطيل
لسان حاله (العلم) ثانياً ، وإن أعضائه أخذوا في الانزواء ؛ خوف
اضطهاد الحكومة ، لا سيما بعد مجيء اللورد كيتشنر معتمداً لـ إنجلترا
في مصر .

تلك أمانتهم ، ولكنها بعيدة عن الحقيقة بمراحل . حز بنا
قوة لا يمكن لقوة في العالم أن توهنه كما يتمنون . وقد ظهر ذلك
عند ظهور العلم ، وعودة اللواء إلى حالته الأولى ، وإقبال القراء
عليهما ، وعلى باقي جرائد حز بنا .

نعم إن الحزب الوطني تتجسم فيه فكرة الوطنية الحقة ،

والفكرة لا يمكن وقفها ... وقد صرحنا غير مرة في جرائدنا ومن
أعلى هذا المنبر بأننا نحارب هذا الاحتلال الأجنبي ، دون نظر
لشخص ممثله ولسياسته ، إن كانت سياسة شدة أولين ؛ فجميعهم
يرمون لغاية واحدة هي امتلاك بلادنا ، واستعباد أبنائها . فليقل
أعداؤنا ماشاءوا ؛ فنحن سائرون إلى الأمام . »

وبعد أن أشار إلى جملة مسائل تتعلق بالتعليم والاقتصاد
وغيرهما ، ختم خطابه بقوله :

« اللهم طهر قلوبنا من أدران النفاق ، ونق أفئدتنا من
جراثيم الخنوع والاستسلام ، حتى ندرك أن لنا كرامة تجب
المحافظة عليها ، ووطننا يجب الدفاع عنه بالأنفس والأموال ، وحقا
في الحرية يجب المطالبة به . إنك أنت الوهاب . »

وقد أصدر المؤتمر عدة قرارات كان من أهمها :

(١) تجديد الاحتجاج على الاحتلال ، وإرسال برقية
بذلك إلى وزير خارجية إنجلترا .

(٢) المطالبة برد الدستور إلى الأمة ، وإرسال برقية بذلك
إلى الخديو .

محاكمة الزعيم للمرة الثانية

بعد انعقاد المؤتمر الوطني ، وخطبة الزعيم فيه بيومين اثنين فقط ، دعى محمد فريد إلى النيابة للتحقيق معه في بعض فقرات وردت في خطبته تلك ، عدتها تحريضا على كراهية الحكومة . وعرف الناس في ذلك الوقت أن الحكومة عازمت على أن تبحت للزعيم محمد فريد عن سلسلة من التهم ، تجعله رهن السجون لا يخرج من تهمة إلا إلى تهمة ، ولا يغادر سجننا إلا إلى سجن . ولم يكونوا يقصدون بذلك إيذاء الفقيد في صحته ، أو في حريته الشخصية ، وإنما كانوا يرمون إلى غرض واحد ، هو قتل الحركة الوطنية ، وإطفاء المشعل الوطني الذي كان الفقيد يحمله .

ولما كان الفقيد يحرص على ألا يخفت صوت مصر ، وألا ينطفئ مصباح الحرية ، رأى أن يهاجر إلى بلاد يسمع فيها صوته ، وينطلق فيها لسانه .

الهجرة

وماذا بقي لهذا الزعيم من أعمال المجاهدين إلا أن يكون

مهاجرا؟ لقد هاجر إبراهيم، وإسماعيل، وموسى، ومحمد، فكان
لهجرتهم دوى في التاريخ.

لقد أودى محمد في وطنه مكة، ولقد آذاه أهله وذوو قرابته،
فهاجر إلى المدينة، ليظهر بكلمة الحق، ولينصر عقيدة التوحيد،
وليحارب الكفر والظلم والعناد.

لقد نكلوا بفريد أشد تنكيل. عطلوا صحيفته التي تنادى
بمبادئه، وتنشر آراءه، وآذوا أصحابه، وسجنوه وشردوهم. وآذوه
هو فسجنوه وأغروه، فلم تلن قناته، فصمموا على سجنه كلما
ظهرت منه مقاومة.

فلهذا هاجر فريد كما هاجر الأنبياء والمرسلون والمصلحون.
ولهذا هاجر إلى تركيا.

كان زميله في الجهاد الشيخ عبد العزيز جاويز قد سبقه إلى
تركيا. فلما نوى فريد أن يهاجر اتفق مع صديقه (إسماعيل ليب) ١٩١٢
على أن يسافرا معاً.

ولم يكن السفر هينا لينا؛ فإن للرجل زوجاً وأولاداً وأسرة
وأهلاً. كيف يفاجئهم بهذا الخبر؟ كيف يزعمهم بهذا النبأ؟
وإن للحكومة عيوناً يتتبعون خطاه، ويعرفون سره ونجواه.
فكيف يفلت من يد الحكومة وهي الحريصة على القبض عليه؟

لقد أوى إلى مضجعه ليلة السفر ، وأخبر زوجته بحقيقة الخبر ،
وأنبأها أن الحكومة تنوى سجنه ، وأن له قضية في النيابة ،
لا بد أن تكون نتيجةها الحبس ، وأنه لا مفر من الهجرة ؛ ليفلت
من القوم الظالمين ، وليدافع عن بلاده في جو هادئ حر .
وكانت زوجته مثلاً في الوفاء لزوجها ولوطنها ، فوافقته على
فكرته ، وأيدته في هجرته ، وتوجهت إلى الله بقلبها ولسانها أن
يرزقها الصبر ، وأن يعينه في هجرته .

وبكت قلوبهما بلا دموع ، وكل منهما يشجع صاحبه ،
ويطمئن خاطره . وإن للفراق لوعة ، وإن للاعتراب لحرقه .

وغادر منزله في صبيحة يوم الثلاثاء ٢٦ من مارس سنة ١٩١٢
بعد أن ودع زوجته ، وطلب إليها ألا تخبر أولاده بحقيقة هذا
السفر ، وألا تطلعهم على صحف الصباح ؛ لأنها أذاعت شيئاً عن
تحقيق النيابة مع والدهم ، وهو يخشى أن يقرأوا هذا الخبر فيفرزوا .
ركب الزعيم القطار وقلبه الكبير مملوء همًّا وحزنًا . هذا
البيت الكريم غادره سيده فهل يعود إليه ؟ هذا العش من يرعاه
بعد اليوم ؟ وهذه الأفراخ كيف تستقبل الصباح والمساء ، وقد
ذهب السند المعين ؟ هؤلاء البنون وهؤلاء البنات نائمون في
مخادعهم ، غافلون عما يراد بهم في هذا الصباح الحزين . أترى

قلوبهم الطاهرة البريئة قد أحست في نومها آثار هذا الفراق
المكتوب .

هذا الوجه الكريم الذي يحبونه لن يروه اليوم كما تعودوا .
فهل يرونه بعد غد ؟ هذا القلب الحنون الذي ينبض حناناً عليهم ،
ويشع عليهم من حنانه أين هو ؟

هذا المجاهد الذي يبذل نهاره وشطراً من ليله في خدمة وطنه
أين هو ، ليأوى إلى فراشه ، وقد هجع جميع الناس ، وأووا إلى
مضاجعهم ؟ قامت كريمة فائقة من نومها تبحث عن أبيها فلم
تجده ، وكانت صغيرة السن ، لم تتجاوز التاسعة من عمرها . وقد
تعودت أن تقبل والدها كل صباح ، وأن تلقى من والدها
السماحة والندى .

لكن في هذا الصباح فتشت في زوايا البيت فلم تجده ، وسألت
أمها عنه ، فلم تجبها أمها ، وتشاغلت عنها والقلب مشغول ،
والذهن مشرد .

وقامت حميدة فقالت لأختها إن (بابا) قد سافر إلى الإسكندرية
وسيعود في المساء ، ومعه ما تحبين من هدايا الإسكندرية .
وصمتت الأم لما سمعت هذا القول ، وذرفت عيناها على الرغم منها
دمعة ساخنة لم تدر کہا الوليدتان ، ولكن أدركتها أختها الكبرى ،

فعرفت أن حادثاً قد ألم بأبيها ، ولكنها لا تعرف هذا الحادث .
وغلب على ظنها أنه ذهب إلى النياية ؛ ليجيب عن سؤال ،
أوليدفع اتهامها ، أوليقضى أياماً في السجن كالتي قضاها منذ عام .
ولم يخطر ببالها قط أنه ذهب إلى الإسكندرية ليركب الماخرة
(الملكة أولجا) الروسية إلى الأستانة مستخفياً .

ولم يخطر ببالها قط أن أباهما مسافر سافراً بعيداً لا رجوع
منه ، وأن ليلة أمس كانت آخر ليلة يقضيها والد في بيته وبين
أولاده . ياله من رجل ! كيف اغتمضت عيناه في تلك الليلة ؟
كيف نام ؟ كيف استطاع أن يرد نفسه عما تأمر به النفوس
البشرية ، من حب السلامة ، والخلود إلى الراحة ، والتمطى إذا
دعا الداعي ، أو نزل المكروه ؟

يا له من رجل ! ياله من والد ! ياله من زوج !
كيف سافر في قطار الصباح ، ولم يتأرجح به التردد
إلى قطار المساء ؟

كيف ترك عبد الخالق وأخواته حميدة وفاتكة واطيفة وهانم ؟
لقد قبلهن نائمات ، وودعهن غافلات ، وترك الأمر للإله .
ولا حول ولا قوة إلا بالله .

لم يدفع أجر السفر في السفينة إلا بعد أن أقلعت من الميناء ،

لأنه كان مختفياً في غرفة أحد أصدقائه خوفاً من عيون الحكومة وجواسيسها أن يمنعوهُ السفر ، أو يعوقوه عن ركوب الخطر . ثم صعد على ظهر السفينة ، وألقى آخر نظرة إلى شاطئ الإسكندرية ، وقال وداعاً يا مصر إلى يوم اللقاء ، وداعاً بلادي المحبوبة ، سأمضي في الجهاد غير خائف ولا وان ، واسان حاله يقول :

ولى وطن آليت ألا أبيعهُ * وألا أرى غيرى له الدهر مالكا
ويقول الشاعر :

وحبب أوطان الرجال إليهم * مآربُ قضاها الشباب هنالكا
أخطأت أيها الشاعر حين عاجلت أسباب حب الأوطان ، ونسبته إلى تلك المآرب التي قضاها الشباب في أرض الوطن ، وتحت سمائه . فهذا محمد فريد ماقضى في وطنه مآرباً ، وما أدى لشبابه حقاً ، إنما جنى على شبابه ، وجنى على صحته من أجل وطنه . فقد علمت أن زعامته جاءت مبكرة ، وأن رجولته ظهرت وهو في ريعان الشباب .

ولو كانت المآرب التي قضاها الشباب والاستجابة إلى شيطان الصبا سبباً في حب الوطن ، مارأينا من أبناء هذا الوطن من صار حرباً على الوطن . وغالب الظن أن هؤلاء الذين كفروا بحق

الوطن ، كانوا حرباً عليه وعلى رجاله الأحرار ، هم أكثر الناس
استمناً بالوطن ، وهم أكثر الشبان استمناً بالشباب ودواعيه
— يوم كانوا شباناً .

الماخرة تسير

لا تحسب أيها القارئ الكريم أن الناس احتشدوا في
ميناء الإسكندرية لوداع الزاحل الكريم ، كما تعودوا أن
يجتمعوا لتوديع كل مسافر ، وكل راكب ، وكل راحل في هذه
الأيام . ولم يلوح له أحد بمنديل ، ولم يذرف أحد دمعة حين
أقلعت السفينة من الميناء . ولما يعانقه صديق أو حبيب ، إنما
هاجر هو وصاحبه ، كما هاجر محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه
في خفية وتكتم شديدتين .

وسارت تلك السفينة الروسية تتهادى فوق الأمواج ، ولم
تدر أن من ركابها رجلاً يحمل أمل أمة ، ومِدْرَهاً يدافع عن حق
أمة ، وزوجاً ووالداً فنيت مصالح أبنائه وأسرته في مصالح الأمة
وحقوقها .

لم يذهب فريد ليحضر مؤتمراً ، أوليتسلق جبلاً ، أوليزيل
هما ، أوليجدد صحة . بل ذهب ليكون المؤتمرات ، وينشئها إن شاء .

ذهب ليزلزل الجبال زلزالا ، وليدك صروح الظلم دكا . ذهب
ليفنى ما بقى من صحته وقوته ، فى سبيل بلاده وأمته . ذهب ليقول
للمحتلين فى عقر دارهم : اخرجوا من بلادنا ، واتركونا أحراراً
نحكم أنفسنا بأنفسنا ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً .
ذهب ليقول لأوروبا ملوكا وحكومات ، وشعوباً وصحافة ،
إن بلاد خوفو ورمسيس وتحتمس قد وطئها أقدام المحتلين ،
فحكموها حكم القوى للضعيف ، وأكرهوا حكامها على طاعتهم
والخضوع لجبروتهم .

انتصف النهار وعادت فائقة وحيدة ، وعاد عبد الخالق إلى
البيت ، ليتناول الطعام . وإنهم ليسألون أمهم عن أبيهم ، وإن
أمهم لتسكت فلا تجيب ؛ لأن سحابة من الحزن والهلم والسكابة
تعلو وجهها . وإن الأولاد ليأكلون بعض الطعام ثم يشفقون على
أمهم الحزينة الكئيبة فيعودون إلى مدارسهم ، وإنهم ليرجون
أن يعودوا فى المساء مع أبيهم .
ويأتى المساء فلا الأب قد عاد ، ولا الأم قد اطمأنت . وإن
بعض أصدقاء فريد ليفدون على المنزل ، ويتكلمون كلاماً لا يفهمه
هؤلاء الصغار . وإنهم ليقبلون هؤلاء الفتيات ، وكأن أمراً قد ألم

بهذه الدار وبصاحبها ، ولكن هذا الأمر سر مكتوم ، يشار إليه ،
ويكنى عنه ، ولا يصرح به .

والسفينة ماضية في سيرها ، ترتفع مع الأمواج ، وتهبط معها ،
وفي غرفاتها فتيات وفتيان ، ورجال ونسوة ، ذهبوا ليجددوا
شبابهم ، أو ليضاعفوا مسراتهم ولذاتهم ، أو ليستجموا من عناء
أعمالهم ، أو ليزوروا قريباً أو صديقاً رحلوا عنه أو نزع عنهم .
وإنهم ليتمتعون في رحلتهم بكل ما يتاح في هذه الرحلة من
أسباب التمتع والترف .

ولكن رجلاً وصاحبه يجلسان وحدهما على ظهر السفينة
منفردين ، مغمضين في التفكير ، يفكران في أمتهما ، فتتفرج
شفاههما عن كلمة الصبر . ويفكران في يومهما فتتفرج شفاههما
عن كلمة الشجاعة ، ويفكران في غدهما فتتفرج شفاههما عن كلمة
الأمل . إننا نعرف كيف نصبر على المكاره ، ولكننا لا نعرف
التسليم في حقوق الوطن .

وصل محمد فريد إلى الآستانة في ٣١ من مارس سنة ١٩١٢ ،
وتوفي في ١٥ من نوفمبر سنة ١٩١٩ ، فيكون قد قضى في أوروبا
أكثر من ثمانى سنوات مجاهداً في سبيل بلاده ، لم يسترح
في خلالها لحظة .

سنوات
في أوروبا

وفي هذه المدة من جهاده قامت الحرب العالمية الأولى سنة
(١٩١٤ — ١٩١٨) فزادت تبعاته ، وشقت عليه الحياة ، وصادف
من هول الأيام ما صادف ، فما شكاً ، وما وني ، وما فرط .
وإنا إذا كرون هنا قليلاً من كثير من جهاده في أوروبة .
والقليل يدل على الكثير ، والبعض يدل على الكل .

في مؤتمر السلام بجنيف

وزع محمد فريد على أعضاء المؤتمر في سبتمبر سنة ١٩١٢
مجموعة خطبه ليقفوا على حقائق المسألة المصرية ، فدرست اللجنة
مسألة مصر ، وقررت أحقية مطالبها وعرضها على المؤتمر .
وقد تعرف بكثيرين من أعضاء المؤتمر ، وتكلم معهم في
المسألة المصرية ، فوجد منهم كل إقبال ومعاودة .
وإليك ما قاله هو في وصف أعمال المؤتمر الخاصة بمصر :
عقدت جلسة الافتتاح في صبيحة الاثنين ٢٣ من سبتمبر سنة
١٩١٢ بقاعة الكلية الكبرى . وبعد خطب الترحيب من
مندوب المدينة ومندوب الجمهورية السويسرية ، والرد عليه من
كبار المؤتمرين ، صار انتخاب الوكلاء ، فكانت منهم ، كما انتخبت
كذلك مندوباً عن مصر مع الفاضل الدكتور أحمد طاهر أفندي

الطالب بجامعة الطب بباريس بلجنة الشؤون الحاضرة (ص ٣١٢ ،
٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ،
٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩) التي كان من اختصاصها بحث مسألة مصر
وتقرير ما تراه فيها ؛ لعرضه على الاجتماع العام . اجتمعت هذه
اللجنة و بعد أن تكلم بعض الحاضرين في مصلحتنا وعارض فيها
بعض الإنجليز حررت اللجنة الاقتراح الآتي ، وقررت عرضه على
الجمعية العمومية للمؤتمر . وهاك ترجمته حرفيا :

« مضت سنوات كثيرة والمؤتمر يعلم بالاحتجاجات التي رفعها
الكثيرون من الأعضاء المصريين على الحالة السياسية التي سببها
الاحتلال الإنجليزي . ولما كان المؤتمر يعلم أن الحكومة البريطانية
نفسها كانت ولا تزال تعد الاحتلال العسكري في مصر مؤقتا ،
وأنه في كثير من الأحوال ولا سيما في سنة ١٨٨٢ وسنة ١٨٨٤
تعهدت الحكومة البريطانية بعهود صريحة على لسان (المستر
جلادستون واللورد جرانفيل) أنها لا تمد أجل احتلال مصر إلى
وقت لا نهاية له . وأن الأعضاء المصريين قد صرحوا أنهم يبنون
عملهم بأكمله على أساس القانون ، وأنهم يستنكرون استخدام
وسائل القوة لتحقيق مطالبهم . فالمؤتمر يركن إلى شعور الأمة
البريطانية الصحيح ، ويدكرها بالوعود التي ارتبطت بها الحكومة

البريطانية ، ويعرب عن أمله في أن يجلو الاحتلال البريطاني
عن مصر في أقرب وقت ممكن ، وأن يعاد تأسيس حكومة ذاتية
في مصر ، تكون فيها الضمانات الكفيلة بحفظ المصالح
الدولية والأهلية . »

أدرجت مسألتنا ضمن أعمال المؤتمر ، ولكن لم يأت دورها
للمناقشة إلا في صبيحة يوم الجمعة ٢٧ من سبتمبر ، فافتتح الكلام
المسيو جوبا (Gobat) السكرتير العام للجنة الدائمة والمؤتمر .
فشرح تاريخ الاحتلال وأسبابه ، وبين أنه مؤقت باعتراف
الإنجليز أنفسهم ، وأتى على ذكر وعود وزراء الإنجليز ، وقرأ
بعضها ، ثم طلب الاقتراع على ما طلبته اللجنة .

فقام عضو إنجليزي اسمه (المسترماديسون Mr. Maddison)
من أعضاء مجلس العموم البريطاني ، وأخذ يتكلم بحدة ضد
طلبات المصريين قائلا : « إن المؤتمر غير مختص بنظرها . وإنه
لا يستطيع مؤتمر مثل هذا أن يفحص في بضع دقائق عن مسألة
عويصة مثل مسألة الاحتلال » ، وطلب الاقتراع على عدم
اختصاص المؤتمر أولاً ، ثم آزره أمريكي في عدم الاختصاص ، وإن
كان لم يوافق على الاحتلال قائلا « إن الاحتلال جريمة قديمة ،
ونحن نسعى لمنع الجرائم المستقبلية » . وبعد ذلك قال الرئيس

(المسيو لافونتين) la Fontaine العضو بمجلس شيوخ بلجيكا :

« إننا سمعنا خطيبين من خصوم الدعوى ، فيجب أن نسمع خطيبين من مصلحتها ، وهما (المستر جريرن) الإنجليزى ومحمد بك فريد المصرى » ثم دعا (المستر جريرن) للخطابة ، فقام ودحض دعاوى (المستر ماديسون) ، مبينا أن واجب إنجلترا إنما هو تنفيذ وعودها ، وسحب جنودها فى أقرب وقت ، وإعادة الحكومة الذاتية لمصر ، كما كانت قبل الاحتلال .

فصفق له الحاضرون ، وقاطعه (المستر ماديسون) مرارا ، حتى اضطر الرئيس لتنبيهه للواجب . واشتد اللجاج بينه وبين الرئيس ، واتهم الرئيس بالتحيز لنا مما حول أغلب الحاضرين عنه . وختم (المستر جريرن) خطابه بالموافقة على اقتراح اللجنة ، ورفض المسألة الفرعية التى رفعها المعارض . ثم دعيت للخطابة فقلت :

خطبة محمد فريد :

« إني سعيد للوقوف أمام هذا الجمع الذى يشمل أساطين الأمم المتعدنة ؛ لأدافع عن قضية مصر ، أى قضية أمة ضعيفة أمام أمة قوية تريد اغتيالها . وإني متأكد أنى سأجد منكم كل مساعدة وتعضيد أمام هاضمى حقوقنا ، وغاصبى بلادنا . وإن

مسألتنا ظاهرة ، ولا تحتاج لشرح طويل ؛ فقد وفاها (المسيوجوبا) حقها من الوجهة التاريخية والسياسية ؛ ثم طلب رفض المسألة الفرعية قائلا : « إن هذه المسألة رفعت في مؤتمر استوكهولم ، » وبعد مناقشة طويلة تقرر رفضها ، وتكليف اللجنة الدائمة فحص الدعوى ، وقد فحست عنها .

يقول بعضهم إن مسألة مصر كمسألة بولونيا ، فقال الرئيس « إن بولونيا ممثلة هنا بصفة أمة » . فقابل الحاضرون هذا التصريح بالتصفيق والتهليل . يقولون إن مصر كبولونيا ، وأنا أقول لا شبه بينهما ؛ لأن بولونيا جزئت بين ثلاث دول ، أما مصر فمحافظة على ذاتيتها . ولم يدع الإنجليز أنفسهم أنها مستعمرة إنجليزية ، أو أنها تحت حمايتهم . ومع ذلك فهل ابتلاع أمة أو أمم كبيرة لأمة صغيرة يحرم هذه الأمة الدفاع عن نفسها ؟ كلا إن حق الدفاع عن النفس واجب على أى حال مهما تكن الصيغة التي يصنع بها المعتدون أعمالهم المغايرة للإنسانية . إنى أطلب لمصر ذلك الحق الذي قرره المجلس في جميع اجتماعاته السابقة ، وهو أن لكل أمة الحق المطلق في أن تحكم نفسها بنفسها كيفما تريد . أذكركم بقراراتكم السابقة ، وأطلب منكم الإنصاف من أى قوة تريد ابتلاع بلادنا .

إن جميع المصريين من رأيي يطلبون الجلاء ، إلا بعض
الذين يتظاهرون بمحبة الإنجليز لينقدوهم ثمن خيانتهم غالبا .
إن معارضى الأمريكى يقول : إن المؤتمر يشغل بمنع الجرائم
المستقبله ، لا بالجرائم القديمة ، فهذا اعتراف منه بأن الاحتلال
جريمة ، وأنا أوافق على ذلك . ولكن أقول إنه جريمة مستمرة
كما نقول نحن معاشر المحامين ، أو إنها تجدد كل صباح ما بقى
الاحتلال » .

« وختمت عبارتى بطلب الموافقة على اقتراح اللجنة مع
رفض عبارة طلب الجلاء (فى أقرب وقت ممكن) ؛ لأن هذه
العبارة تفتح لالجلترا باب التسوية ؛ فإنكم تعلمون أنها دخلت
مصر لتبقى بضعة أسابيع ، وها هى ذى قد قضت مدة ثلاثين سنة .
فليكن إذا طلب الجلاء حالا » .

ثم تقرر الموافقة على الاقتراح كما هو ، ورفضت المسألة
الفرعية ، ورفضت التعديلات .

وعند ذلك دوى المكان بالتصفيق المستمر ، وعلا الهتاف
فى كل مكان ، وأخذ المصريون يهتفون بعضهم بعضا ، كما أخذ
أصدقاؤهم يهتفونهم كذلك .

صدي هذا المؤتمر العالمي

كان المصريون يتهللون فرحا ، ويطيرون اغتباطا إذا ذكرت الصحف الأجنبية كلمة عن القضية المصرية ، فيها رائحة الدفاع عن حقهم . فما أعظم ابتهاجهم وسرورهم عندما أظهرت شركة هافاس قرار المؤتمر العالمي ، وهو مؤتمر عظيم بلغ أعضاؤه نحو أربع مائة عضو ، يمثلون صفوة رجال القانون والاقتصاد والعلم والسياسة في أنحاء العالم !

لقد أكبر الوطنيون هذا القرار ، وأكبروا هذا المجاهد العظيم الذي جعل لمصر قضية في أوروبا تنظر وتناقش ، وتصدر فيها قرارات :

نعم لقد كان هذا المؤتمر فوزا جديدا للقضية المصرية ، ودعاية عظيمة لها بين مختلف الأمم المتحضرة .

لقد جدد الأمل في نفوس الوطنيين ، وأحيا فيهم الرجاء ، وأرسل كثير منهم برقيات يهنئون فيها محمد فريد بجينيف . ونحن هنا نكتفي بذكر إحدى هذه البرقيات التي نشرت في جريدة العلم في ٣ من أكتوبر سنة ١٩١٢ :

نهنتك فريد بك

فريد بك بجنيف .

نهنتكم بنجاحكم نجاحا باهرا ، وفوز بمجهوداتكم التي أثمرت
بإقرار المؤتمر وجوب الجلاء عن مصر ، وإعطائنا حكومة مستقلة ،
ونؤمل أن نصل إلى ذلك قريبا .

التوقيعات

محمد شكيب القاضي بالحاكم الأهلية سابقا .

عبد الله طلعت — محمد علي المهندس — أحمد وجدي الحامي
بالزقازيق . محمد عبد الملك حمزة الحامي بمصر — عبد الرحمن
الرافعي الحامي بالزقازيق — إسماعيل صادق — إسماعيل حافظ
مدير جريدة العلم — عبد المقصود متولي الحامي بمصر — أحمد
وفيق الحامي بالزقازيق — أحمد علي المحرر بجريدة العلم — محمود
حمدي السخاوي — أمين الرافعي الحامي بمصر — محمد زكي علي
الحامي بمصر ، مصطفى الشوربجي الحامي بطنطا — إسماعيل
كامل الحامي بمصر .

هذه إحدى عشرات القضايا التي أقامها محمد فريد في عواصم
أوروبا ، ودعا إليها ، ووضح حقيقتها ، وشغل بها الأذهان
والصحافة وشركات الأنباء .

ولو أن أمة من الأمم قامت بهذا العمل ، وأوفدت مندوبين عنها ، وأنفقت في سبيل ذلك مئات الألوف من الجنيهات ، لحسبت في عداد الأمم المجاهدة . فكيف لو قام به فرد واحد هو محمد فريد ؟ وكيف لو قام به فرد طارده حكومته وخيرته بين السجن والنفي ؟ وكيف لو قام به هذا المجاهد وحده في أوروبا ، وأنفق في سبيله كل ما يملك من مال وعقار ، وصحة وجهه ، وهذه حكومات بلاده ماضية في اضطهاد أصحابه وأعوانه ، والقائمين على مبادئه ، تحاكمهم وتشردهم ، وتنفيهم وتعطل صحفهم ، وتكف أفواههم ، وتغلق نواديهم ، وتضطهد ذراريهم ؟

لقد ذكرت هذه القضية (قضية مؤتمر جنيف) سنة ١٩١٢ بشيء من التفصيل والتوضيح ؛ لتكون عنواناً ودليلاً على القضايا الأخرى التي أقامها ، ودعا إليها ، وخطب فيها وناضل ، ودافع عن حقوق بلاده في فرنسا ، وفي بلجيكا ، وفي الدانمركة ، وفي بلاد الإنجليز أنفسهم .

ولم يكتف بهذا ، بل أنشأ الصحف والمجلات ، كان يحررها بقلمه ، وينشرها في عواصم أوروبا ، ويوزعها على أنصار مصر وأصدقاء المصريين .

لمصر الآن سفارات في معظم بلاد العالم ، وفيها موظفون كثيرون ينفقون أموالاً جمة ، ونرجو أن تقوم هذه السفارات

بما قام به فريد المنفى الشريد ؟
لم يكن لمصر في ذلك الوقت تمثيل خارجي ، فكم من
مئات الجنيهات رصدتها مصر لهذه الدعاية لقضيتها العادلة ؟
لا شيء ، بل رصد فريد لعمله وجهاده كل ما يملك من مال
وعقار ، وصحة ، ودم وعرق ، وحب وحنان وأبوة و ...

الجزء

في الوقت الذي كان محمد فريد مشغولاً فيه بمؤتمر جنيف
يصول فيه ويجول ، ويحاور ويحاول ، كانت حكومة مصر
مشغولة هي الأخرى بأمر هام ؛ ذلك أن الفقيد كان وهو بمصر
عضواً في نادي المدارس العليا ، وكانت له على هذا النادي أياد
بيضاء ؛ فإنه في سنة ١٩٠٨ أهدى إلى مكتبة النادي خمسمائة
كتاب من خيرة الكتب التي كانت تحتويها مكتبته العظيمة .
فقام وفد برياسة عمر لطفى بك رئيس النادي وعضوية
بعض الأعضاء ليشكروا للمهدي هديته ، وقدموا له كتاب
شكر رقيق .

وفي سنة ١٩١١ أي قبل النفي أهدى إلى النادي جميع مافي
مكتبته النفيسة من الكتب ، فصارت مكتبة النادي من
أغنى المكتبات .

تلك هي الصلة الروحية بين الفقيه ونادى المدارس العليا ،
وكان يضم مجموعة من صفوف المصريين فى ذلك الوقت .
انتهزت الحكومة فرصة نفى الزعيم فى أوروبا ، وطلبت
إلى النادى أن يمحوا اسم فريد من بين الأعضاء ، بحجة الحكم
عليه بالسجن ، وأنه بذلك أصبح مجرماً .

وعز هذا القول على رئيس النادى وعلى أعضائه ، وقالوا
للوزراء المصريين : « معاذ الله أن يكون جزاء فريد منا فصله من
عضوية النادى ، ومعاذ الله أن يقول مصرى على فريد إنه من
المجرمين . كبرت كلمة تخرج من أفواههم » .

وهددت الحكومة النادى بالإغلاق ، فاجتمع أعضاء النادى
جميعاً ، وقرروا أن الإغلاق خير للنادى من تنفيذ أغراض الوزارة ،
فسكتت الحكومة إزاء هذا الإصرار .

أثر فريد فى الحياة النيابية بمصر

لم يرض محمد فريد بالدستور بديلاً ؛ فمجلس شورى القوانين
والجمعية التشريعية والجمعية العمومية كل هذا كان فى نظره ملهاء
يلهى بها المحتلون فريقاً من المصريين ؛ ليشغلوه عن طلب الدستور .
ولكن فريداً لم يسكت قط عن طلب الدستور ، ولم يشغله شاغل
عن طلبه والإصرار عليه .

طلبه مراراً من الخديو ، وكانت الجمعية العمومية للحزب
الوطني في كل اجتماع لها تبرق إلى الخديو بطلب الدستور . ولقد
دعم فريد حركة طلب الدستور بتقديم العرائض من جميع طبقات
المصريين ، رجالاً ونساءً حتى بلغت هذه التوقيعات
خمسة وستين ألفاً .

ولكن الدستور الذي أفنى حياته في طلبه لم يتحقق لمصر
في حياته ، ولكن هذا لا ينسينا ما أحدثته هذه الحركة من
اليقظة والشعور بين المصريين ، حتى جعلت من أعضاء هذه
المجالس النيابية السورية من يخشى الاحتلال بأسهم ، وإليك
ما قاله (السير الدوق جورست) المعتمد البريطاني في تقريره عن
سنة ١٩٠٩ :

« إن أعضاء مجلس شورى القوانين لا يستطيعون التخلص
من الآراء الفاسدة التي يوحىها إليهم الناقون من الحكم الحاضر ،
والنظر فيما يعرض عليهم بالعين المجردة عن الهوى . فمن أمثلة ذلك
المعارضة المستمرة للإعانات التي تمنحها الحكومة لترقية السودان » .

وقال في تقريره عن سنة ١٩١٠ : « إن مجلس الشورى
والجمعية العمومية أظهرها في سنة ١٩٠٩ وفي النصف الأول من
سنة ١٩١٠ ميلاً متزايداً إلى أن يكونا آلتين بأيدي الحزب الوطني ،

يستعملهما في تحريضه وتهيبجه على الاحتلال الإنجليزي ؛ فإن طلبهما المتكرر لحكومة دستورية تامة ، وحملتهما المنكرة على الحكومة فيما يتعلق بميزانية السودان ، والعداوة والريبة اللتين أظهرهما في مشروع قناة السويس ، وتجاوزا فيهما حد الاعتدال كانت كلها في جوهرها مظاهرات ضد الإنجليز طوعاً لتحريض الحزب الوطني ، فإن الفكرة الكبرى عند هذا الحزب هي أن يبطل الاحتلال البريطاني بجعل قيامه بمهمته أمراً مستحيلاً . هذه شهادة من ممثل الاحتلال البريطاني في مصر للحزب الوطني ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

النادي المصري بلندن

كان محمد فريد بأوروبة كما كان بمصر مدرسة يتلقى الشبان عنها مبادئ الوطنية . وكان يرى أن النهضة الاجتماعية هي الأساس الذي لا بد منه لنجاح النهضة القومية الوطنية .

وكان لتنقلاته في عواصم أوروبة رنين ودوى أيقظا الشبان المصريين الموزعين على جامعات أوروبة المختلفة ، فجمعهم أخبار فريد ، وخطبه السياسية ، والمؤتمرات التي يدافع فيها عن قضية مصر ، وكان من أثر ذلك أن فكر الطلبة المصريون بلندن في تأسيس ناد يجمعهم ، ويلم شملهم ، سموه النادي المصري . ودعوا

فريداً لحضور حفلة الافتتاح ، فحضر الاجتماع ، وجلس في كرسي الرئاسة ، ثم ألقى خطبة بصوت مؤثر قال فيها :
« إخواني الأعزاء ، إني لسعيد بأن أراكم مرة أخرى ، وأقوم اليوم بافتتاح هذا النادي المبارك . وأظن أن الكلام في فوائد الأندية والمجتمعات من قبيل تحصيل الحاصل كما يقولون . فإلحاجة بي لأن ألقى على مسامع مجمع مستنير مثلكم ما أتمنى على علم أكيد به مثلي ، لقد كنت أيها الإخوان أتمنى وجود هذا النادي من قبل ، وإني لسعيد بأن أرى أمنيته هذه قد تحققت اليوم ، ولم تؤخر إلى غد .

وإني أشكر لأعضاء اللجنة التحضيرية بصفة خاصة ، وأعضاء الجمعية العمومية عامة تنفيذ هذه الفكرة التي عرضتها عليكم ، وكان كل أمل وثقتي أنها ستحوز هذه العناية منكم . كم كنت أمتلئ حمرة في زيارتي للعواصم والمدن الأوروبية عند ما كنت أرى جميع الجاليات الأجنبية ما عدا المصريين تعنى عناية عظيمة بتأسيس أندية وجمعيات لها ، بدون تمييز أو تفريق بين أفراد الجالية الواحدة ، ولكن النهضة الأخيرة للشبيبة المصرية بأوروبة قد أزالته عن ذلك الهم ، الذي كنت أكتفه في نفسي ، ولم أدعه يتغلب على ، فإني أذكر بمزيد البشر والارتياح نادي

المصريين بالأستانة ، وجمعيات أبى الهول فى جنيف ولوندره ،
وجمعية الأخوة الإسلامية بباريس ، وجمعية المحاضرة والمناظرة
المصرية بلوندره . واليوم أذكر بسرور مضاعف تأسيس النادى
المصرى بلوندره الذى نحتفل اليوم بافتتاحه ، ولا يزال الأمل الوافر
فى تأسيس جمعيات وأندية مصرية وطنية أخرى فى بقية العواصم
الأوروبية ، وفى نمو التضامن والتآزر بينها . ومهما يكن عدد أعضاء
هذه الجماعات والأندية صغيراً فى بدء تأسيسها ، فليست قيمتها بعدد
أعضائها ، ولكن بشخصيتهم . وكل عضو منها بألف من أموات
الأحياء . ليست وظيفتكم فى هذه الديار هى التعلم المدرسى فقط ،
بل أيضاً الاستفادة من حسنات أهلها ، والتمرن عليها . وأنتم
ترون هنا بأعينكم أثر الأندية والمجتمعات فى نهضة هذه الأمة
فقدشبوها بها ، وتمسكوا بأحسن الوسائل التى تفوق بها غيرنا علينا .
ربوا أنفسكم تربية وطنية عملية صالحة . وتدرؤا على جميع أسباب
النهوض ، استعداداً لخدمة بلادكم البائسة . (تصفيق وامتحسان) .
ربما كان عدد الحاضرين فى هذه الجلسة غير كثير بالنسبة
لعدد المصريين فى لوندره أو فى بريطانيا كلها ، لكنه عدد غير
قليل فى حد ذاته ، ويكفى أن أرى هذه القاعة قد غصت على رحبها
بشبان يتدفقون غيرة وشمما ، وأول الغيث قطر ثم ينهمر . . .

إن من أكبر العلل المتفشية في أمتنا (اليأس) ، فحاربوه .
وإياكم أن تدعوا خلة ساقطة مرذولة كهذه تتغلب على عقولكم
النيرة . حاربوا اليأس ما استطعتم . وتمسكوا بالوحدة الوطنية
جهدكم . وأنا أضمن لكم يافتيه النيل المحبوب الفوز المرجو
(تصفيق حاد) .

أتم رجال المستقبل ، فأعدوا له عدته من الآن ، وإلا ضاع
عليكم المستقبل ، كما ضاع الماضي على غيركم . تولوا شئون أنفسكم
بأنفسكم ، وحققوا ما رميتم إليه من تأسيس هذا النادي ، وهو أن
يكون مظهراً وطنياً لكم ، ووسيلة إخاء بينكم ، ومساعدة
بعضكم لبعض :

ماذا ينقص بلادنا للوصول إلى بغيتها ؟

لو عرف كل متعلم فيها — على قلة عددهم — واجبه القومي ،
وحرص عليه حرصه على حياته ، وعلم أن شرفه مرتبط بأدائه .
إن الوطنية المضربة تطالبكم أيها الإخوة الأعزاء بأن تحرصوا
على صيانة هذا النادي الذي يمثل جنسياتكم الموقرة في هذه الديار ،
تطالبكم ألا تنسوا خدمة بلادكم في كل فرصة ، وبكل وسيلة .
تطالبكم بالاتحاد ببعضكم ببعض ؛ لضمان رقي هذا النادي ووجوده ،
وكذلك ما مثله من الأعمال الوطنية . تطالبكم بأن تذكروا دائماً

أنكم إخوة في الوطنية قبل كل شيء ، وأنه من الجريمة وأنتم ترون مبلغ تمكن العدو منكم ، ومن أمتكم الحزينة ، أن تتنازعا بعضكم مع بعض فتفشلوا ، أنتم أولى من غيركم يا طلبة العلم والحكمة بالقضاء على هذه الصفات التي جرت على بلادنا وعلى جميع أعمالنا الخراب والدمار (استحسان) .

تشبعوا بروح الأمل والرزانة والتسامح ، وحب التضحية الشخصية ، فهذا هو معنى الوطنية . (تصفيق) علموها لأبائكم ولأهلكم ولأصدقائكم في مصر إذا كان بينهم من تسعده الأحوال بمعرفة أسرار الحياة الراقية التي تعيشونها هنا . لعلكم بذلك تداوون جراحات وطنكم العليل ، وتقرنون النجاح بأعمالكم ، وأعمال مواطنينا في مصرنا العزيزة ، فيقرب ذلك اليوم الذي تستطيع أن ترفع فيه أمتكم رأسها من الأثقال ، بحية عودة حريتها الغالية المسلوقة » . (تصفيق متواصل)

وقد انتخب الفقيه رئيس شرف للنادي بين هتاف الأعضاء ومروهم وحبورهم .

في فرنسا

عرج فريد على ليون وهو عائد من لندن ، فأقيمت له حفلة تكريم كبيرة في أحد الفنادق الشهيرة ، حضرها أساتذة الجامعة ،

ورجال الحكومة ، وبعض المحامين ، ومحافظ المدينة ، ونحو
٢٠ مصرياً .

وبعد أن توالى الخطباء فى الاحتفال بمن أوجد حركة وطنية
قوية مصرية ، وقف فريد وقال :

« لا تظنوا أن أبا الهول نائم تماماً ، كلا فإنه ينام بإحدى
عينيه ، وينظر بالأخرى إلى الأمم الفاتحة التى توالى على مصر ،
وذهبت كأمس الدابر ، وهو رابض مكانه يمثل الأمة المصرية
التي لم يؤثر فيها المغيرون » .

وقد قوبلت خطبته بحماس شديد ، وتصفيق حاد .

فى أثناء الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ — ١٩١٨

— ١ —

كان الخديو عباس يسعى جاهداً للصالح مع فريد ، فلما
أعلنت الحرب العالمية الأولى جدد الخديو هذا المسعى ، وقبل ذلك
فريد على شريطة أن يعلن الخديو الدستور . وقد أبدى الخديو
لحاشيته أنه مغتبط بالصالح معه ، وأثنى عليه وقال عنه :
« إنه رجل مبادئ ، لا يتغير ، مهما يقاس فى سبيل المحافظة

على مبادئه . ولكن الحوادث كانت أسرع منهما ، فخلع الخديو ، ومنع دخول مصر ، وأصبح هو الآخر يقاسى أهوال النفي والاغتراب .

— ٢ —

وحدثت بمصر أحداث جسام ، فعين السلطان حسين كامل على عرش مصر ، وتألقت وزارة حسين رشدي باشا ، واضطهد الوطنيون ففتشت بيوتهم ، واعتقل الكثير منهم ، ونفوا في أوروبا ومالطة ، وأعلنت الأحكام العرفية في مصر ، وأعلنت الرقابة على الصحف ، خففت الأصوات ، وصار الأحياء أشبه بالأموات .

— ٣ —

أما فريد فلم يفتر نشاطه ، بل تجدد أمله ، وقويت عزيمته ، وقدم إلى الدول المتحاربة والمحايدة مذكرة يذكرها بحق مصر والمصريين في مؤتمر الصلح الذي بدت تبشير انعقاده ، قال : « إن الحزب الوطني المصرى الذى كان ولا يزال على مبادئه (مصر المصريين) ، والذي وقف نفسه على الدفاع عن وطنه العزيز ضد أى اعتداء أو احتلال أو تدخل أجنبى ، تحت أى اسم أو بأى صورة ، يخاطب اليوم بهذه المذكرة كل الحكومات بلا استثناء ،

انجلترا وحلفاءها ، تاركا العواطف والميول جانبا ، متبعا للسياسة
العملية الحققة .

إنا نريد أن نبين أن الحاجة إلى السلم العام ، وإلى العدل ،
وإلى الحق تنصح لكل الحكومات أن تساعدنا على تحرير
مصر من الاحتلال الإنجليزي ، الذي تحول بغير حق إلى حماية
في ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ .

إن كل الحوادث التي جرها احتلال مصر بالجنود البريطانية
سنة ١٨٨٢ ، والتي أدت إلى وضع يد إنجلترا على الإدارة المصرية
معروفة مشهورة ، فلا داعي إلى الإطالة والإسهاب فيها .

ولقد نال الوطنيون بزعامة عرابي باشا دستورا كاملا من
الخديو توفيق في سنة ١٨٨٢ ، وساعد على تتميم الإصلاحات التي
أعلنوها ، وأعان الشعب على السير إلى التقدم في ظل الحرية ،
ولكن إنجلترا التي كانت تطمح إلى امتلاك مصر وترقب الفرصة
للتمكن منها وجدت في قيام فتنة الإسكندرية سنة ١٨٨٢ فرصة
أدت إلى إطلاق القنابل في ١٠ من يولية ، وإلى تخريب جزء
عظيم من تلك المدينة الآهلة بالسكان ، ثم إلى احتلال القاهرة
في ١٤ من سبتمبر من السنة نفسها . وقد وعدت إذذاك في
المنشورات التي أذاعها (الأميرال سيمور) و (اللورد ولسلي) أن

هذا الاحتلال لن يدوم إلا أسابيع أو شهورا على الأكثر ،
وكررت الملكة فيكتوريا هذا الوعد رسميا في خطبها الملكية ،
وكرره وزراؤها على منبر الخطابة في (البرلمان) الإنجليزي . وفوق
ذلك فإن ممثلها وقعوا على (ميثاق النزاهة) في ترابيا (يونية
سنة ١٨٨٢) ، ذلك الميثاق الذي تعهد الموقعون عليه ألا يسعوا إلى
احتلال أى جزء من أراضى مصر ، ولا الحصول على أى امتياز
خاص فيها . فهل كانت إنجلترا وحلفاؤها يحسبون إذ ذاك أن
المعاهدات التى ضمنت استقلال مصر من سنة ١٨٤٠ لا تستحق
الاحترام الذى ظفرت به المعاهدات التى ضمنت حياد البلجيك ؟
حقا إنه لمن المدهش ألا يكون فى المذكرات الرسمية المتبادلة
بين المتحاربين ، ولا فى مذكرة البابا أى كلمة تختص بمصر
أو بغيرها من الأمم الخاضعة لانجلترا وحلفائها . فهل الحقوق
الإنسانية قسمان ، لكل محارب قسم ، أم إن الحق الدولى
لا يستحقه غير الشعوب الصغيرة الأوروبية ؟ وإنا مع ذلك
لا نريد أن نصدق ما يظن من أن لهذا الفرق فى المعاملة مكانا من
نفوس الدول المتمدينة ، مهما تكن تصرفاتها لتسوغ ارتيابنا فى
إنصافها ، وكذلك لا نريد أن نياس من النصر النهائى للحق
والعدل ، بالرغم من الطمع الذى لا حد له ، والرغبات المتفاخرة فى

أفئدة عشاق الإمبراطورية الإنجليزية ، وإلا فإن ما كانوا يطمنون به من تقدم الإنسانية ، وسير البشر إلى الإخاء العام ، سيظهر في ثوب المدنية المنهزمة ، والإفلاس التدليسي .

ونحن لا نجهز بهذا النداء اعتمادا على المبادئ الحرة فحسب ، ولكننا نعتمد من جهة أخرى على مصلحة السلام العام ، وبقاء تجارة العالم ، وضمان النقل في قناة السويس ؛ فإن هذه أمور تتطلب حرية مصر واستقلال وادي النيل . فإن مركز مصر من ناحية هذا الطريق الدولي قد أغرى الغزاة بالتطلع إليها حتى قبل أن تحفر قناة السويس . وقد أراد نابليون في أواخر القرن الخامس عشر أن يتخذها قاعدة لأعماله ضد الإنجليز في الهند . وزادت أهمية مركزها بعد فتح القناة التي صارت أخصر طريق يوصل أوروبا وشرقي أفريقيا بجنوبي آسيا وأقصى الشرق .

وإن زيادة أهمية هذه القناة التي تنشأ عن اتساع تجارة أوروبا وعن كثرة علاقاتها البحرية مع البلاد التي تستورد منها المواد الأولية لصناعاتها تتطلب منطقيا وجوب الاستقلال لمصر ، حتى تستطيع بكل صراحة أن تجعل القناة على الحياد . وقد بينت الحرب الحاضرة أن هذه القناة ستكون حلما لا يتحقق مادامت لأي دولة أجنبية يد في مصر ، وأنها بذلك تستطيع أن تنفرد

بمزايا الملاحة فيها ، وأن أحسن حل لهذه المشكلة هو أن تعطى
مصر استقلالها ، وأن يعهد إليها في حراسة هذا الطريق الدولى
والدفاع عنه ، حتى تكون الحرية شاملة لكل متاجر العالم .
وإنه لبدهى أنى حين أتكلم عن مصر أريد كل وادى
النيل من أقاصى السودان إلى البحر الأبيض المتوسط ، ثم البحر
الأحمر ، بما يشمل كردفان ودارفور ؛ فإنه لا يجمل إنسان أن من
يملك أعالى النيل إنما يملك رقبة مصر ، ويستطيع بكل سهولة
أن يحتكر جزءا عظيما من مياهه لرى السودان . ومن أجل ذلك
أوجدت إنجلترا حكومة منفصلة فى السودان المصرى ، متخذة
من سواكن وغيرها مرفأ للملاحة فى البحر الأحمر . وكذلك
تعارض دائما فى اتصال السكك الحديدية المصرية بأخواتها فى
السودان ، تاركة تمهيد ما بين أسوان ووادى حلفا حتى تستطيع
حين تجبر على الخروج من مصر أن تسيطر على حوض النيل
الأعلى ، وعلى فروعه التى تمده ، ثم تبيع الماء لمصر بوزنه ذهباً .
فيجب أن يكون وادى النيل لأبنائه^(١) ، غير مجزأ ولا مقسم ،
كما كان كذلك منذ وجد الأب البار لهذا الوادى ألا وهو النيل .
وبالمسألة المصرية ترتبط مسألة القناة فى حيدتها الفعلية ،

(١) فى الأصل : لنا وحدنا معاصر المصريين .

وحرية المرور للسفن ، من غير تمييز بين دولة وأخرى ، في زمن
السلم وزمن الحرب . ولقد كانت حيدة القناة معروفة ومضمونة من
جانب الدول بمعاهدة دولية منذ سنة ١٨٨٥ ، وقد وقعت هذه
المعاهدة في لندن بعد احتلال إنجلترا للقناة حين إغارتها على
مصر بالرغم مما قاله (المسيو فردينان دى لسبس) لعرايى باشا من
أن فرنسا ستمنع — ولو بالقوة — احتلال إنجلترا للقناة ، وقد
انخدع عرايى بالوعد الفرنسى ، فامتنع عن سد القناة ، وغفل
عن أن يتخذ منها قواعد أولية للدفاع . وقد تجاوزت إنجلترا حد
المشروع فاحتلتها احتلالا عسكريا ، بعد أن خدعت الجيش
المصرى ، ثم دخلت مصر بعد موقعة التل الكبير (١٣ من
سبتمبر سنة ١٨٨٢) . وعلى الرغم من هذه المعاهدة الجديدة في
سنة ١٨٨٥ قد اعتدت إنجلترا على القناة ، واحتلتها من جديد ،
منذ نشوب هذه الحرب حتى قبل أن تدخل تركيا ميدان القتال .
إن مصر تعلن حقها الطبيعى فى أن تستقل بحكم نفسها ،
ذلك الحق المعترف به الذى أعلنته كل الدول فى مؤتمرهاى . ذلك
الحق الذى من أجله زعمت إنجلترا وحلفاؤها أنهم يواصلن القتال .
إن مصر إذا أعطيت استقلالها التام ، وحريتها المرجوة ،
لجديرة بأن تبرهن للعالم أنها ما فقدت شيئا من خصائصها الأصلية ،

وأنها محتفظة بمزايا أسلافها العظام . إنها لا تعرف المطامع الاستعمارية ،
ولست لها آمال من هذه الناحية ، ولا تطمح في أن يمتد ملكها
أكثر من حدوده الطبيعية . وإنما تطلب حقها في أن تعيش
حرة مستقلة ، وأن ترتع في بحبوحة السلم ، وأن يكون لها تحت
الشمس المكان اللائق بها ، وأن الصلح الذي يترك مصر
لأنجلترا سيكون صلحا أعرج ، وسيحمل الإنسان على حرب
تكون أفظع من الحرب الحالية .

(فلتحي مصر للمصريين) .

محمد فريد

استوكلهم في ١٠/١٠/١٩١٧

رئيس الحزب الوطنى المصرى

هذه صحف من تاريخ مصر القومى ، نذكرها لأنها
مواظ وعبر للكبار . وفيها تربية وطنية للصغار . وفيها توضيح
لل قضية المصرية . وفيها إيمان بحق الوطن فى الاستقلال . وفيها
إلمام واسع بتاريخ مصر وقضية وادى النيل .

هذه الصحف المطوية من تاريخنا القومى ننشرها لكم
يا طلاب العلم ، ويا أشبال مصر ، لتكون رائدكم حين تعملون ،
وحين تجاهدون ، وحين تبذلون للوطن مجده واستقلاله .

إلى المؤتمر الدولي الاشتراكي في برن

فبراير سنة ١٩١٩

وكتب محمد فريد تقريراً ضافياً قدمه إلى المؤتمر الدولي الذي انعقد في (برن) بسويسرة طالب فيه بالاستقلال التام .

وهناك تعرف الوطنيون (بالمستر هندرسن) رئيس حزب العمال البريطاني ، وقد استمع إلى مطالبهم في المسألة المصرية ، واقتنع بعادتها ، ووعدهم بتأييدها .

وكان هذا أول اتصال (للمستر هندرسن) بالقضية المصرية ، وقد صار فيما بعد وزيراً للخارجية الإنجليزية في حكومة العمال ، وتولى المفاوضة مع الوفد المصري سنة ١٩٣٠ .

وأظنك الآن أيها القارئ الكريم قد عرفت كيف اتصلت الحركة الوطنية قبل الحرب الكبرى ، وفي أثنائها وبعدها ، فلم يخفت لمصر في كل تلك المدة صوت ، ولم ينقطع لها مطلب في داخل مصر أو في خارجها . وكل هذا بفضل محمد فريد وأتباعه ، فلما شبت الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ لم تكن جديدة ولا طارئة ، إنما كانت امتداداً لثورة قديمة شبت بين الضلوع ، وفي القلوب ، في عهد محمد فريد ، خليفة مصطفى كامل .

صوت من وراء البحار

أرسل محمد فريد وهو بسويسرة الرسالة التالية إلى مصر
لمناسبة ذكرى احتلال الإنجليز العاصمة (١٤ من سبتمبر
سنة ١٩١٩) :

رسالة محمد فريد إلى مصر

« إخواني المصريين الأعزاء :

إن الصوت الذي يناديكم اليوم منعتهم الظروف عن الارتفاع
في صحف مصر من سبع سنوات ، ولكن منعه من الارتفاع
على ضفاف وادي النيل لم يكن عقبة تعوقه عن الدفاع عن
القضية المصرية في عواصم أوروبا سواء قبل هذه الحرب أو في
أثنائها أو بعدها .

إن صوت هذا الضعيف لم يخفت يوما واحدا ، ولم يتأخر
عن القيام بما تفرضه عليه الوطنية طرفة عين ، بل كان يزداد قوة
ونشاطا كلما تراكت أمامه الموانع ، وتكدست العقبات .

إن هذا الصوت يناديكم من وراء البحار ، ليهنئ الأمة المصرية
على تضافرها وتضامنها في المطالبة بحق أممتنا المظلومة (مصر) ،
لا فرق في ذلك بين أبنائها وبناتها ، المسلمين والأقباط ، مما كان له

دوى فى أوروبة أخرس المتهمين إياهم بالتعصب الدينى ، وهم يعلمون أنهم لكاذبون . وقضى القضاء الأخير على دعوى أن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا .

إننى لعاجز عن وصف ما شملنا من السرور نحن معاصر المصريين المقيمين خارج الديار عند وصول هذه الأخبار المنعشة إلينا ، ولو أنها كانت تأتينا مقتضبة مبتورة ، حتى أصبح المصرى فى أوروبة على الرأس ، فخورا بمصريته ، أضعاف ما كان يفخر بها قبل الآن .

إننا كنا ننتظر صحف مصر انتظار الظمان للماء ؛ لنقف على أخبار هذه الحركة المباركة ، وهاتيك المظاهرات السلمية . ونشكر الله على هذه النتيجة الحسنة ، التى دلت على أن ما ألقاه مؤسسو الحركة الوطنية من البذور فى تلك الأرض الخصبية ، قد نبت وترعرع ساقه ، ثم أزهر وظهرت ثماره الشهيبة ، التى قد قرب زمن جنيها . كل ذلك بفضل نشاط الشبيبة العاملة ، و بإرشاد الشيوخ لها إلى أحسن طريق لجنى أشهى تلك الثمار ، وهو الاستقلال التام ، بفضل جهود الأمة بلا تباطؤ ، أو تواكل ، أو اعتماد على الغير لا يؤثر فيها غدر السياسيين ، أو نكرانهم لما أذاعوه وأعلنوه من مبادئ عادلة ، استعملت ستاراً لإخفاء مطامع أشعبية ، تغريرا وتضليلا ، للوصول إلى استعباد شعوب كريمة

لا تطلب إلا أن تعيش في بلادها آمنة مطمئنة ، صديقة لغيرها
من الأمم ، وأن تعاملها تلك الأمم معاملة الند لنده ، والقرن لقرنه ،
طبقا لحقوق الأمم الطبيعية ، وللقانون الدولي ، لكن لا تتطيروا
أو تفرحوا بكل ما يصل إليكم ، حتى إذا ما تقشعت سحب الأوهام ،
وظهرت شمس الحقيقة ، لا تكون حالكم كالسافر في الصحراء ،
يرى السراب فيظنه واحات غناء ، فإذا ما وصل إليه لا يجده
شيئا . وإياكم أن تنسوا عبر التاريخ . وليكن دائما أمام أعينكم ؛
فمنه تعلمون الحقيقة . ولتنظروا خاتمة الأعمال ، لإصدار
حكمكم عليها .

« أيها الأغزاء :

أكتب هذه السطور اليوم ، وذكري ١٤ من سبتمبر
سنة ١٨٨٢ تملأ قوادي حزنا وأسى على مصرنا العزيزة ، وما
انتابها من الحوادث القضاية على استقلالها . ولكني أرى فجر
الأمل يرسم على الأفق خطا من النور اللامع ، نرجو أن يكون
طليلة حريتنا المنشودة ، واستقلالنا المرجو .

فسلام عليك أيها الوطن المقدى ، و سلام على النيل وواديه .
سلام على الأهرام وبانيه . سلام على خدام مصر الخالصين .
سلام على شهداء الحرية !! »

في ١٤ من سبتمبر ١٩١٤ محمد فريد

أيها القارئ الكريم .

اقرأ هذه الرسالة الكريمة مثنى وثلاث ورباع .

اقرأها على مهل . وتفهم كل كلمة من كلماتها .

إنها آخر صوت يصل مصر من الفقيد .

إنها رسالة الوداع للنيل ، وللهرم ، وللمصريين .

لم يذكروا فيها أهله ولا داره ، وإنما ذكر فيها النيل والهرم ،

والحرية والاستقلال ؛ فهما شغله الشاغل ، وهب لهما قلبه وحياته .

اقرأها ؛ فلن تقرأ له بعد الآن شيئاً ، ولكنك ستقرأ

عنه كثيراً .

إنه سيصبح خبراً من الأخبار . سيكون في ذمة التاريخ

قبل أن يعود إلى وطنه المحبوب ، وقبل أن يرى الأبناء والأهل ،

وقبل أن تطأ قدمه أرض مصر التي أحبها حبا وفاقيا .

اقرأ هذه الرسالة التي كتبها وهو على فراش المرض ، ولم يمض

على كتابتها شهران حتى كان جثة هامدة ، أعياء الجهاد ، وأعياء

العمل ، فخر صريعاً بعد أن أنهك التعب والمرض قواه .

أيها الراقدة في غير أرضه !

جمع جبار الوادي ! ! جمع إلى الأبد ، وكان لا يعرف كيف

يهجم — كان عاملاً وساعياً ، وخطيباً ومجاهداً ، في الحرب وفي

السلم ، في القرب وفي البعد ، في السراء وفي الضراء .
هجع جبار الوادى ، لا بفعل الغاصب المحتل ، ولا بفعل
الحاكم المستبد ، ولا بفعل الحصم الحسود ، ولا بفعل السجون
المظلمة ، والمعيشة الشديدة القاسية . لم يمت بهذا ، وإنما مات لأن
الله أراد لهذا المصباح أن ينطفئ ، ولهذا المجاهد أن يستريح ، ولهذا
الروح أن يصعد إلى خالقه .

انتهى الأجل ، ولكل أجل كتاب .
اشتد عليه مرض الكبد من كثرة الإعياء والتعب ،
والوصب ، والسهر ، والقول والكتابة ، والتفكير والتدوين .
صار يتنقل بمرضه من عاصمة إلى عاصمة ، ومن مستشفى إلى
مستشفى ، ومن طبيب إلى طبيب .

لم تسهر بجانبه زوج ولا بنت ولا ولد . لم يودعهم الوداع
الأخير . ولم ينظرهم النظرة الأخيرة . مات في أعقاب الحرب العالمية
الأولى وهو يقول لإخوانه :

« إني أنا وأولادى وكل عزيز لى فداء لمصر . لقد قضيت
بعيداً عن مصر سبع سنوات ، فإذا مت فضعوني في صندوق ،
واحفظوني في مكان أمين ، حتى تتاح الفرصة لنقل جثتي إلى
وطنى العزيز الذى أفارقه ، وكنت أود أن أراه ! ! »

تلك آخر كلماته ، وبعدها أسلم الروح لخالقه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

أسمعت كلمات في الوطنية أبلغ من هذه الكلمات التي ينطق بها لسان عقده الموت ؟

في يوم عاصف غزير المطر ...

وأمام مصحة من مصحات برلين ، وقف عدد من المصريين في ألمانيا ، ومعهم كثير من الشرقيين والألمان ، وقبل تشييع الجنازة وقف الشيخ عبد العزيز جاويش أمام جثة الفقيد وقال :

كلمة الشيخ عبد العزيز جاويش أمام جثة الفقيد

« أيها السادة : أمام جثة هامة ، وميت لا يعي ، نحن واقفون . كلا ! ثم كلا ! إنما نحن وقوف أمام صفحات من تاريخ الجهاد الأكبر ، في سبيل الحرية البشرية ، في سبيل الذود عن الحقوق الطبيعية للشعوب الإنسانية ، في سبيل مصارعة الأمم القوية ذات المطامع الأشعبية .

نحن وقوف أمام هذا الراحل الكبير ، الذي كانت حياته مثالا كاملا للمتشبهين ، وقدوة صالحة للعاملين ، فها هي تلك صفحاتها الناصعة ، ترينا كيف ضم فقيدنا العزيز إلى صلابة العزم جهادا لا يوهنه الملل ، ولا يوهيه الكلال ، كما ضم إلى الصراحة

البالغة في كتابته وفي كلامه إقداماً يستهزي بالغوائل ، ويستهزي من كائنات النوازل .

لقد رأيناه يوم ساقه الإنجليز إلى السجن بمصر ، فما كان إذ ذاك أقل ابتساماً منه يوم فراقه بعد ستة شهور كاملة ، قضاها في غيابه وظلمائه .

ضيقوا عليه المذاهب ، وأخذوا الأبواب والمسالك على قلمه ولسانه ، فلم ير بدا من مفارقة وطنه وأولاده وعشيرته ؛ إذ خرج يلتمس فضاء يسع صيحاته ، التي ضاق عنها فضاء بلاده ، ووقرت دونها آذان أعدائه ...

والآن نستودعك الله أيها الرئيس المحبوب ، قمم مغموراً برحمة الله وإحسانه ، مزوداً من أمتك بالدعوات الصالحة ، والذكرى العطرة ، والحب الدائم ، والسلام عليك ورحمة الله .
ثم سارت الجنازة إلى مقبرة المسلمين ببرلين ، وهناك حفظ التابوت بكنيسة بالقرب من المقبرة ؛ لكي يمكن نقله إلى مصر ، ونثرت على النعش الأزهار والرياحين ، المقدمة من وفود المصريين والشرقيين والأوروبيين .

وبقي التابوت وديعة لدى حارس الكنيسة ، وظل أصدقاء الفقيد وتلاميذه يزورونه ، ويضعون الأزهار على التابوت ، إلى أن نقل إلى مصر في يونيو سنة ١٩٢٠ .

أين قبر فريد ؟

كانك أيها القارئ الكريم تسأل وأين قبر فريد ؟ وكأنك تتخيل أن أمة النيل قد شادت له من الصخر بنيانا قائما يوائم عظمة الفقيد ، ويلأئم ما قدم لهذه الأمة من تضحيات .

فاعلم — إن كنت لا تعلم — أن فريدا رقد ككل الراقين في قبر كسائر القبور عند السيدة نفيسة .

ها هنا قبر شهيد في هوى * أمة أيقظها ثم رقد

كيف جرى بنعش الفقيد من برلين ؟

لم تقم الحكومة المصرية في سنة ١٩٢٠ بهذا الواجب ، ولم تقم الأمة المصرية الكريمة بهذا الواجب ، ولم تقم بذلك الواجب جماعة أو هيئة ، بل قام به فرد من الناس ، لا ينتمى إلى وظيفة أو منصب أو جاه ، إنما يحمل نفسا كريمة ، ومروءة وشهامة ، فقام بما لم تقم به أمة ، وأدى وحده هذا الواجب ، مشكورا من الله سبحانه وتعالى ؛ ذلك الرجل هو المرحوم الحاج خليل عفيفي التاجر بمدينة الزقازيق بالشرقية .

سافر من الإسكندرية في ٥ من مارس سنة ١٩٢٠ قاصدا

برلين ، لهذه الغاية ، وعاد مع الجثة يوم ٨ من يونية سنة ١٩٢٠ .
أربعة شهور أنفقها هذا الشهم في السعى والعمل على تذليل
العقبات التي صادفها في نقل الجثة الطاهرة .

وأخيرا تكمل مسعاه بالنجاح .

وفي يوم وصول الجثة إلى الإسكندرية كانت الأمة كلها قد
استعدت لاستقبال نعش الفقيد ، رجالا ونساء ، شيبا وشبانا ،
فتية وفتيانا ، وكان يوم تشييع جنازته يوما مشهودا ، لبست مصر
فيه السواد ، واشتركت الأمة بجميع طوائفها في تشييع فريد إلى
مقره الأخير .

أما القصائد والخطب التي نطق بها اللسان ، وتحرك بها
الجنان ، فإنها تملأ مجلدا ضخما خفيا . وسنكتفي هنا بذكر قصيدة
لحافظ ، وأخرى لشوقي قالها في ذكره الخامسة :

في رثاء فريد

قال حافظ ابراهيم :

مَنْ ليومٍ نحن فيه مَن لَغْدٍ مات ذو العزمة والرأى الأسد
حَلَّ بالجمعة حزنٌ وأسى ومشى الحزنُ إلى يومِ الأحد

أيها النيل لقد جلّ الأسى كن مدادا لي إذا الدمع نفذ
واذبلي يا زهرة الروض ولا تبسمي للطلّ فالعيش نكد
فلقد وليّ فريد وانطوى ركن مصر وفتاها والسند

خالد الآثار لا تخش البلى ليس يبلى من له ذكر خالد
يا غريب الدار والقبر ويا سلوة النيل إذ ما الخطب جد
آثر النيل على أمواله وقواه وهواه والولد
يطلب الخير لمصر وهو في شقوة أحلى من العيش الرغد
ضارباً في الأرض يبغي مأرباً كلما قاربته عنه ابتعد

لهف نفسي هل يبرلين امروء فوق ذاك القبر صلي وسجد ؟
هل بكت عين فروت تربه ؟ هل على أحجاره خط أحد ؟
« ها هنا قبر شهيد في هوى أمة أيقظها ثم رقد »

وقال سوفي في ذكره الخامسة سنة ١٩٢٤ :

نجدد ذكرى عهدكم ونعيد ونذني خيال الأمل وهو بعيد
وللناس في الماضي بصائر يهتدي عليهن غاو أو يسير رشيد

فريد ، ضحايانا كثيرٌ وإنما مجال الضحايا أنت فيه فريد
 فما خلف ما كابدت في الحق غاية
 ولا فوق ما قاسيت فيه مزيد
 تغربت عشرًا أنت فيهن بأُسُّ وأنت بأفاق البلاد شهيد
 تجوع ببلدانٍ وتعرى بغيرها وترزح تحت الداء وهو عنيد
 ألا في سبيل الله والحق طارف من المال لم تبخل به وتليد
 وجودك بعد المال بالنفس صابرا إذا جزع المحصور وهو يجود
 فلازلت تمثالا من الحق خالصا على سره نبني العلا ونشيد
 يُعلم نشء الحى كيف هو الحمى وكيف يُحامي دونه ويدود

قلب مصر يخفق

كتبت صحيفة الأهرام في عدد يوم الخميس ١٠ من يونيو
 سنة ١٩٢٠ رقم ١٣١٤٩ تحت العنوان السابق مايتأتى : —
 كتب المرحوم قاسم أمين بك في مذكراته (أنه رأى قلب
 مصر يخفق مرتين : الأولى في أثناء حادثة دنشواى ، والمرة الثانية
 يوم جنازة مصطفى كامل باشا) . ولو أن قاسما عمر حتى اليوم لرأى
 قلب بلاده يخفق في كل عام مراراً وتكراراً ؛ يخفق لكل اهتزازة
 وطنية ، ويخفق لكل دعوة قومية ، قد يتناول الأمة كلها

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

كثيار الكهريا ؛ إذا مس طرفاً لا يلبث أن يصل إلى سائر الأطراف .
يقظة منبتها في الصدور منبت الوطنية الصادقة . وهمة مقرها
في القلوب مقر الطموح إلى التقدم والرقى . وإقدام يحدوه الأمل
والأمانى الطيبة بمستقبل باهر تستشفه العيون من وراء حجب
الأيام وهو باسم الثغر ، طلق الحيا ، وفيه النعم ، فتتلع إليه الأعناق ،
وتقف عليه البصائر ، وتتعشقه النفوس فيمتلكها ، حتى تعد كل
غال في سبيل هذا المستقبل رخصيا ، وكل نعيم دون نعيمه سعيرا
أوجحيا . وقديما كان في الناس حب الكمال الأسمى . وقديما
كان المصريون أول متطلع إلى هذا الكمال . فهم هم أصحاب الفلسفة
الدينية من عهد الفراعنة إلى عصر القياصرة . وهم هم دماغ النصرانية
وصقال مذاهبها ، وهم مرجع التعليمات الإسلامية وحفظتها .
فاذهب إلى الكرنك واسأل رموزه المركبة في صخوره ،
تقل لك إن بناته وضعوا أسس القومية المصرية ، والوطنية ذات
الحدود الفردية ، وقالوا بالجنسية ذات العنصر الفرد ، قبل أن
تتلقى عنها رومة التعليمات ، وقبل أن تقوى أشور وكلد و بابل ،
فاذا كان لكل أمة أو عنصر تراث في الأخلاق والطباع
يتنزل إليه من جد إلى جد ، وأب إلى أب ، حتى الأبناء فالأحفاد ،
فإلى من بعدهم أبد الدهر ، فإن في دم كل مصري تراثا عن

أجداده وآبائه يتنزل في صدره ويسير في شريانه مع الدم ،
فاذا كانت كل أمة حية في أرض عامرة وقد نبئت بها وتأصلت
تستنفد من يمتزج بها ، بعد أن تستمد منه دمه الصالح الباقي —
ولا يبقى غير الصالح — فتقوى به دمها وتمده بما هو فيها حتى تصير
منه ، ويصير منها ، فإن مصر سارت على السنن في أطوار
وجودها ، فلا الرعاة ظلوا فيها رعاة ، ولا النوبيون بقوا فيها نوبيين ،
ولا الفينيقيون ولا الرومان ولا اليونان ظلوا فيها فينيقيين ويونانا
ورومانيين ؛ بل صار الجميع مصريين . كذلك قل عن العرب
والحبشان والترك والجرس والسريان والكلدان ، كانوا كالقطرة
تلقها في اليم فتصبح منه بجوهرها وأجزائها وعنصرها ، وترت
تراثه وخلقه ، وطبائعه وغلوائه ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة
الله تبديلا . وسر في نظام هذا المجتمع الإنساني ، ولن تلق عنه
في أمة من الأمم تحويلا وتغيرا .

وعلى هذه السنة وهذا السر من نظام المجتمع ارتمت عينا
(محمد فريد) المصريتان الوطنيتان ، من عهد الصبا إلى أن جاوز
الشباب إلى الكهولة ، والصحة إلى السقام ، حتى النفس الأخير ،
إلى جمال الكمال الأسمى ، فكان قيد بصره وقلبه ، فلم تتحول
عنه عيناه ، ولم تصغ إلى غير صوته سامعته ، ولم ينبض بسواه

قلبه ، ولن ينطق بغير روائه لسانه ، حتى صار كله ملكا لذلك
المعبود الأسنى ، يصيب ويخطئ في سبيله ، ويصح ويسقم في
هواه ، ويقول ويعمل على سنته ، ويتعب ويرتاح من أجله ،
حتى سكن ذلك القلب الخالق به ، فحقت لسكون قلبه قلوب
أمته ، وعاد فريد إلى مصر وهو جثة هامدة ، وكأنما روحه حية في
الأرواح ، وحمله أبناء وطنه في خشبة إلى رمسه ، وكأنما هم يحسون
من حدة بيانه بما هو فوق البيان ، ومن كبر قلبه وجنانه بما يفوق
قوة القلب والجنان ، ومن دعوته وتعليماته ما يزيد في تلك الدعوة
نشراً ، والتعليمات علوا وسموا .

وكل امرئ صالح في كل أمة عاملة يزيده التعاقب عليه ،
ومروره على محك القول ، وأطوار الشعوب ، بهاء ورواء ، ونمو
وكمالا . ويكفي فريدا أنه أخلص في المحبة والخدمة ، والدعوة
والمثابرة بحكم المعتقد واليقين ، حتى تبالغ الأمة في إجلال ذكره ،
 وإعادة فضله ، وتأدية ما يجب له .

إذا عدت الأمة جسما يتحرك بالرأى ، ويسير وراء كل
مقدام يتقدمه ، فإن فريدا أحب أمته ، وأحب وطنه ، ووقف
العمر على تلك المحبة . وإن فريداً من تلك الرؤوس بجسم الأمة ،
ومن أولئك الذين ساروا في طليعتها ومقدمتها قادة شجعاناً ، لا يلوى

رأسهم إلى الراء ، ولا يميننا ولا شمالا ، عدل أو عذر ، وعد أو وعيد ،
تعب أو بؤس ، بل يسرون إلى الأمام ، ويسرون دائما إلى الأمام ،
وهم يدركون أن وراءهم شعبا يدرج أدراجهم ، ويتلو خطاهم ،
فيواصلون إليه بذلك الشعب إلى الأمام ، فإذا سقط ذلك المجاهد
بجهد ، أو فرغ زيت الحياة من مصباحه المضيء ، وقفت أمته التي
تقدمها تؤدي له تحية الإجلال والوداع ، وكأنها وهي تلحده في
رمسه تقطع له العهد على نفسها بمواصلة سعيه وعمله ، فتزداد حليته
استنانا ، وفي سعيه جدا .

شاركنا هذا المجاهد من أبناء الأمة ربع قرن كامل في
أفراحه وأشجانه ، وفي آماله الطيبة التي لم ينقطع حبل اتصالها ،
ولم يقف لحظة شوط استنانيا ، فلم نعرف فيه غير الإخلاص
دينا ، وصدق الإيمان والعقيدة الوطنية منهجا ، كريم الخلق
والسجايا كوجه المرأة صفاء ، صادق العزيمة لم يجزع لتخلف رفيق
في وعرة المسلك والطريق ، سريع الإجابة لنداء كل داع للخدمة
الوطن ، شرق وفي ، لا يرضى بمصريته أو شوقيته استنقاصا
أو غمطا ، ينظر إلى الأمور من وجوها الحسنة فيزداد أمله قوة ،
ونفسه رضا . شريف في كل مقصد حتى الخصومة ، لين العريكة
حتى في الأشد من نقده ودفع حجة خصمه ، فمن عرفه عرف

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

فيه صديقا ، ومن سمع به فكأنه يسمع بقريب منه .
هبت عواصف السياسة والحروب في العالم ، فارتدى فريد
بين أعصارها الهوجاء ، ليخدم أمه مصر ، وسكنت تلك العواصف
أوكادت وفريد بين هوجائها ، يرى من رجال أمته من قالوا
(أنا لها) ، فمد يديه النحيلتين يحكي العاملين ، وينشط الناهضين ،
وذهب إلى ربه بجمهة ناضرة ، وعين تغمض على الارتياح المقرون
بالأمل ، وذهب إلى ربه قرير العين والبال ، بعد مارأى من
أمته منظرا بهيجا ، حبه الأفلاك بدورتها ، والأرض بحركتها ،
والأمم والشعوب بعدالتها ، فإذا حيت المدائن والقرى والعواصم
جثمان فريد اليوم فإنما هي هبة من يقظة الأمة ، وتحيية من تحياتها
لوطنها . وإذا هي رتل على قبره آيات الرحمة والرضوان فإنما هي
أنشودة من أناشيد الدعاء لهذا الوطن بالسعادة والهناء .

فارق في قبرك مرتاحا ؛ فكل مصرى يعوج بعد اليوم
بذلك القبر ليحيى فيه الوطنية الصادقة ، والهمة العالية ، والنفس
الكريمة . وكل مصرى يمر على بصره حروف اسمك يرتل
حمدك . وكل مصرى يخطر بخاطره جهادك يلقى له فيه درسا
نافعا ، وتعلما صالحا . فالأفراد يموتون ، ولكن الأمم تحيا . ومن
كان فيها أمثالك ، يعمل أمثالك ، فإنها لا تحيا فقط على الدهر ،

بل تزداد كل يوم حياة ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .
والأرض يرثها الصالحون .

نم مرتاحا ، فقد جاهدت جهاد العاملين ، فكسبت أجر
الصالحين » . هذا ما كتبه صحيفة الأهرام .

وبعد فقد ضحى فريد بحياته وثروته ، وراحته ومركزه ،
وأسرته وأولاده في سبيل مصر ، وحريتها واستقلالها ، فهل
تذكره مصر ؟ وهل يذكره المصريون ؟ ليس في مصر من ضحى
بمثل ما ضحى به فريد . لقد كانت له ضيعة أكثر من ألف فدان
بمركز منيا القمح شرقية باعها في سبيل مصر . كان له كثير من
البيوت ، فباعها في سبيل مصر .

كان من السهل أن يكون وزيرا ورئيسا للوزراء لو كان
من يفكرون في أنفسهم . ولكنه عاش لمصر ، ووهب حياته
وثروته لها ، وترك أولاده صغارا للقدر ، وكان لا يجد الضروري
من وسائل العيش في آخر حياته . وعولج بمستشفى للفقراء في
مرضه الأخير ، وكان من الأثرياء بالوراثة ، فهل تنسى مصر فريدا
بعد هذه التضحية ؟ وهل يعرف الشبان من المصريين شيئا عن
حياة فريد ؟

سعد زغلول

ومن الذى يجهل سعدا؟ زعيم مصر، وقائد نهضتها، من أسلمت له الأمة قيادها، فهاها الخروج من ظلام العبودية إلى نور الحرية.

ولد — رحمه الله — فى أسيانة من مركز فوة، بمديرية الغربية، حوالى سنة ١٨٥٧ م. وكان أبوه إبراهيم زغلول عمدة القرية، وله فيها منزل قسامية، وثرأ^(١) واسع، وبيته منتدى الأعيان. وقد شب فى زمن انتشر فيه الظلم، وفسد الحكم، واشتد بطش الحكام، حتى إن مأمور أحد الأقسام شق عمدة، وصلبه ثلاثة أيام؛ لأنه تطاول عليه فى الكلام. غير أن أسرة سعد كان لها من المكانة ما يحميها من هذا الظلم، بل ما يجعلها مهيبة مرعية الجانب؛ فقد حكى عن أبيه إبراهيم زغلول أن أحد المأمورين استطال عليه بالكلام، فما كان منه إلا أن أوسععه ضربا، ثم لم يعتذر، ولم يلحقه منه شر. وقد شعر سعد منذ صغره بالظلم ينال الناس

(١) ثروة كبيرة.

١٩٥٧
١٩٥٧

من حوله ، فاشتد بغضه للظلم والظالمين .

— مات والده وهو في السادسة من عمره ، فكفله الشفاوى زوج خالته ، وشملت أمه برعايتها وعطفها الرشيد ، وأبت أن تزوج وهي في ريعان الشباب ، ووقفت حياتها على تربية أولادها وهم ثلاثة : ستهم وسعد وفتحى . وقد كان سعد يقول : « إنه ورث الإقدام والثورة عن أبيه ، والحكمة والأناة عن أمه » . ذهب إلى المكتب في سن السادسة ، فتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن ، ثم توجه إلى الأزهر أكبر معاهد التعليم في ذلك العصر ، وكان للتلميذ فيه أن يختار أساتذته ، وقد أصاب سعد ؛ إذ اختار الإمامين المصلحين : محمد عبده ، وجمال الدين الأفغانى . وقد أعجب به أساتذته ، وتوسموا فيه النبوغ . ومما يدل على عشقه الحرية أنه أجاد مرة في الكتابة عنها ، فقال الإمام جمال الدين : « مما يدل على أن الحرية ناشئة في مصر أن يجيد في الكتابة عنها هذا الناشئ » .

وقد ألف سعد جماعة لإصلاح الأزهر ، كان فيها داعيا للتجديد ، ثائرا على الأساليب القديمة في التعليم . وقد اختير سنة ١٨٨٠ م للتحرير بجريدة الوقائع المصرية براتب قدره ثمانية جنيهات شهريا ؛ فكان يكتب وينتقد بما يدل على عقل كبير ،

وطبيعة مستقيمة ، ونبوغ مبكر ، ثم انتقل إلى وظيفة معاون
بالداخلية براتب شهرى قدره خمسة عشر جنيا ، ثم كان ناظراً
لقلم قضايا الجيزة .

why I admire with him

وشبت الثورة الوطنية بزعامة أحمد عرابى باشا ، وكان سعد
من المشتركين فيها ، وقد ناله منها أذى كثير ؛ فاعتقل وخسر
وظيفته ، ولكنه ظل وفياً لأصدقائه وعقيدته ، فلم يرض
أن يعتذر ويتزلف ليرجع لوظيفته كما فعل غيره ؛ بل فضل أن
يشتغل بالحمامة ، فى وقت لم يكن فيه للمحاميين كرامة . وكان
أصحاب المنزل من الناس يترفعون عن معاملتهم ، والاختلاط بهم ،
ولكن سعد حين اشتغل بالحمامة ارتفع بها بكرامته وصدقه ،
وخدمته للحق ، فأصبحت مهنة كريمة ، شابته مهنة القضاة ،
بعد أن كان هؤلاء ينظرون إلى المحامين نظرة احتقار ، فلم يقبل سعد
قط أن يدافع عن باطل ، ولم يرفض أبداً دفاعاً عن صدق . ولم
يبالغ فى طلب الأجر ، بل كان لا يزيد فى قضيته على خمسمائة
جنيه ، ولا يأخذ من الفقراء أجراً . فشاع صدقه فى أنحاء البلاد ،
حتى كان إذا قبل الدفاع فى قضية وثق الناس بنجاحها ، فارتفع
بعلمه وخلقه إلى مجاسة العظماء . وتزوج ابنة رئيس الوزراء فى
ذلك العهد مصطفى فهمى باشا وهى صاحبة العصمة صفية زغلول

أم المصريين — رحمها الله — فكانت خير معينة له . خطبها
سنة ١٨٩٥ م ، واحتفل بزواجها في فبراير سنة ١٨٩٦ ، وكان
إذ ذاك في الثامنة والثلاثين من عمره . وكان من عاداته في المحاماة
أنه يحب الصلح بين المتخاصمين ، ويقيد مقدم القضية في باب
الأمانات لا في باب الإيرادات ، ليردها إلى صاحبها في حالة الصلح .
وقد خطب في حفلة نقابة المحامين وهو وزير فقال :
« أفكر أنى عند ما كنت محاميا — ولا أقول ذلك مفاخرة
أو مباهاة ، بل حكاية للواقع يسمعه المحامون الذين هم أحدث
منى سنا ، ليروا رأيهم في اتباعه — ويأتى موكلى مريدا للصلح
خشية خصمه من توكليل عنه ، أرحب به ، وأسهل الأمر عليه ،
بأن أرد إليه مقدم الأتعاب التى قبضتها منه ، لماذا سكتكم ؟ (ضحك
وتصفيق) يجب عليكم أن تساعدوا على الصلح ، ولو برد بعض
الأتعاب ، إن لم يكن كلها . وعلى أى حال أرجو ألا تكون
قيمة الأتعاب مانعا لكم من تحقيق الصلح والسلام . إني ما كنت
أقيد مقدم الأتعاب في باب الإيرادات ، بل في باب الأمانات ،
لأنى نفسى ضعف نفسى . »

ومما يدل على طموحه وعظم همته اشتغاله ، عقب زواجه
وهو يناهز الأربعين لنيل شهادة الحقوق من باريس سنة ١٨٩٧ م .

ORIENTAL INSTITUTE
LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

« انتم عين قاضيا ، فكان عون الضعفاء والمظلومين ، يتمثل في أحكامه البحث الدقيق ، والنزاهة المطلقة ، وغيره المصلحين ، وذكاء النابغين . وكان مع ذلك لا يني^(١) عن تشجيع كل دعوة وطنية ترفع شأن الأمة ، فكان على رأس الداعين إلى الجامعة . ومن بيته صدر منشور الدعوة . وكان الناس يتزلفون إلى (اللورد كرومر) عميد الإنجليز في مصر ، ويطلبون منه قضاء الحاجات . وقد هال (اللورد) أن سعدا لا يتزلف إليه ، ولا يطلب منه كما يفعل غيره . فقال له مرة : « وأنت أليست لك حاجة ؟ » فأجابه في عزة وشجاعة : « شكراً ، ولكني لم أسألك أنت قضاء الحاجات » . وقد قال كرومر عنه : « إن هذا الرجل قدير ، شجاع في عقيدته . وإنه علمني كيف أحترمه » .

واختير وزيرا المعارف في أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، فصادف الاختيار هوى جميع الأمة وأحزابها ، فكان أول وزير مصري احتفظ بنفوذه في عهد الاحتلال ، ووجه وزارته وجهة وطنية . وكان يلقى أوامره على الأجانب لتنفيذ على غير ما كان مألوفاً إذ ذاك ، فمن أبطأ أصابه العقاب .

وقد قال له أحد الأجانب مرة وهو يجيب طلبه : « إليك

(١) لا يتأخر .

يامولای ما طلبت، وأنا رهین إشارتك، أعلم أن فی الدیوان وزیر امطاعا».



المغفور له سعد زغلول باشا

وكان أول وزير تحدث إلى الصحف ، وزار الأقاليم ، وقدر
النبوغ ، أعجبه مرة تلميذ في المدارس الأولية ، فنقله للمدارس
الابتدائية بالجان . ومن أعظم آثاره أنه نقل التعليم إلى اللغة
العربية ، بعد أن كان باللغة الإنجليزية ، وأنشأ مدرسة القضاء
الشرعى .

وكان وزيرا للحقانية سنة ١٩١٠ م ، فعمل على صون
كرامة القضاة ، وأنشأ نقابة المحامين ، وأنصف المظلومين
والقصر^(١) . وقد تبين له ظلم قيم من القوام في مال إحدى
الأميرات فعزله ، وكان هذا القيم على اتصال بالخدو والإنجليز ،
فحصل بسببه خلاف لم يخضع له سعد ، واستقال لأنه لا يستطيع
أن يخالف ضميره . وإن هذا ليريك صلابته في الحق ، وترفعه عن
الخنوع لغير سلطانه ، فحرمت البلاد حكمه ، ولكنها لم تحرم
جهوده ومواهبه ؛ فقد انتخب عضوا في الجمعية التشريعية ، فكان
يحاول فيها بسلاح ماض من قوة الحجة . وسلطان الحق ، حتى
كانت به قوة يخافها الحكام ، شهد بذلك (جورج لويد)
إذ يقول :

« كان زغالول في الجمعية التشريعية ، ومن ورائه أتباعه ،

(١) اليتامى إلى أن يبلغوا سن الرشد .

قوة لامناص منها ، يملكون أن يشلوا عمل الوزارة إن لم يجعلوه مستحيلا ، وكان يكره في الجدل السفاهة والمشامة . « ومن ذلك قوله في الجمعية التشريعية : « لست شتاما ، بل أقر وأعترف أمامكم أنى عاجز أمام كل شتيمة . ليس لى مطلقا قوة فى هذا الميدان لأن أنازل فيه أضعف إنسان » .

وتحملت مصر أضرارا جساما فى الحرب العالمية الأولى التى أعلنت سنة ١٩١٤ م ، ثم وضعت أوزارها فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ م ، فبادر سعد إلى مهمته الكبرى ، وكأنما هيأته نشأته ودراساته ودفاعه عن المظلومين فى المحاماة ، وإنصافه لهم فى القضاء ، هيأه كل ذلك لتأدية رسالته ، وهى دفاعه عن أمته المظلومة ، حتى قال حين تم توكيل الأمة له يذكر زوجه بما سبق من نذره أن يدافع عن الفقراء بلا أجر : « الآن يمكننا أن نوفى بما فاتنا من نذر فى الدفاع عن الفقراء ، فإننا ندافع عن أمة ، وكل غنى فيها فى طلب الاستقلال فقير . » فقد بادر عقب الهدنة يطلب المقابلة من العميد البريطانى فى مصر ، وذهب هو وزميله على شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك (باشا الآن) ، وتناقشوا فى مطالب مصر من الاستقلال التام ، ورفع الحماية ، فدهش العميد من هذا الطلب وهذه الجرأة ، ونصحهم بالانتظار ؛ لأنه لا يعرف

رأى حكومته في هذا . فتوسل الوفد بذلك إلى طلب السفر إلى أوروبا للمفاوضة ، فرفضت إنجلترا الطلب ، فاقترحت جهود الوفد على الاجتماعات ، وإلقاء الخطب — وكانت هذه الاجتماعات تمنع وتفرض بالقوة — وعلى إرسال الرسائل إلى مؤتمر السلام وإلى إنجلترا ، وكان لا يجاب عن هذه الرسائل .

وحدث أن كان (المستر برسيغال) يلقي محاضرة في القاهرة يقترح فيها تغيير التشريع في مصر ، فانبرى له سعد بخطبة عصماء ، يرد فيها أكاذيبه ، ويعلن حق مصر في الاستقلال التام ، فكانت صيحة جريئة تردد صداها في جميع القطر ، وتناقلت الألسنة الخطبة ، وحفظها كثيرون ، واغتاز الإنجليز غيظاً شديداً ؛ فدعا القائد العام الإنجليزى «وطنس» سعدا وتسعة من صحبه ، وقرأ عليهم إنذارا لهم بالعقاب الشديد إن هم داوموا على المطالبة بالاستقلال . فطلب سعد الإنذار ، ولم تمض بضعة ساعات حتى كان الرد قد وصل إلى دار الحماية بالاجتماع وإعلان العصيان لهذا الطلب .

واستقالت وزارة حسين رشدى باشا ، وتعذر تأليف وزارة جديدة ، وتخرجت^(١) الحال ، وألقت إنجلترا التبعة على سعد

(١) ضاقت واشتدت .

وصحبه ، فقررت نفيم . ولم يكن ذلك ليغيب عن خاطر سعد ،
فليس الاستقلال سهلا ينال بمجرد الطلب ، بل دونه أهوال
وعقبات ، ولذا كان يردد قبل نفيه : « لا بدلنا من قارعة . » وقد
كانت ؛ فقد حضر إلى بيت الأمة قوة بريطانية للقبض على سعد
باشا ، ومحمد محمود باشا ، وحمد الباسل باشا . ونزل سعد إلى سيارة
الاعتقال بهدوئه المعهود . وكان آخر كلمة قالها حينذاك : « تشجعوا »
قالها بالفرنسية وكررها .

نفي سعد وصحبه إلى مالطة ، وكان أول ما عمل فيها أن كتب
احتجاجا على تصرف انجلترا يبلغها فيه أن كل تعذيب للمصريين
لا يزيدهم إلا تمسكا بمطالبهم . وقد غضبت الأمة ، واشتعلت
الثورة فيها في مارس سنة ١٩١٩ م . فلم يقو على إطفائها جيش
الاحتلال .

وفهمت انجلترا أخطاءها تجاه سعد والأمة المصرية . كل
هذا وسعد وصحبه في مالطة لا علم لهم ؛ حتى زارهم حاكمها فقال
لهم : « أشعلتم النار في مصر ، وجئتم إلى هنا » . فعلموا أن بمصر
أحدانا خطرة . وبعد شهر في منفاهم جاءهم نيا الإفراج عنهم ،
والإذن لهم بالسفر مع زملائهم إلى حيث يشاءون . فما كان أطيّب

هذا الخبر في نفوسهم ؛ لأنه بشرى بالحرية ، وبالنجاح في قضيتهم الكبرى .

سافر سعد وصحبه إلى أوروبا ، وكان عمله فيها الكتابة في الصحف ، ومراسلة الدول ، وإقامة الولائم لعرض القضية بكل الممكن من الوسائل . وقد نجحت الدعوة في شعب فرنسا كما نجحت في أمريكا ، فرفض مجلس شيوخها معاهدة مؤتمر السلام ، وأخذ أنصار القضية المصرية يزيدون ، فعلمت إنجلترا أنه لا بد من مفاوضة الوفد ، فسافر الوفد إلى لندن ، واستمرت المفاوضات من يونية إلى أغسطس ، وانتهت بالإخفاق ، ثم اضطر سعد إلى العودة لمصر مرفوع الرأس ؛ إذ أبي أن يفرط في حقوق أمته ، أو يخضع لأعدائها ، بل أسمع صوتها العالم ، ونشر على الدنيا قضيتها العادلة . فما إن وصل إلى الإسكندرية حتى استقبل استقبالاً لم يظفر به عظيم من عظماء الجيل في العالم كله ؛ فقد انتظمت البلاد كلها موكبا واحدا ، من القاهرة إلى الإسكندرية ، وتراصت الجموع الحاشدة أمام القطار ، حتى اضطر إلى الوقوف في أماكن كثيرة . وازدحمت شوارع العاصمة ، واكتست الأشجار بالمتسلقين لها ، ونسى بعضهم نفسه ، فكان يصفق بيديه غافلا عما يهدده من خطر الوقوع من فوق الشجرة ، ولم يكن في

الحقيقة من خطر ؛ إذ كانت الأرض مكسوة بالناس ، لاموضع
فيها لقدم . وانتشرت أقواس النصر ، وأعلام الزينة على طول
الطريق ، فكنت لا تسمع إلا اسم سعد ، ولا ترى إلا صورة
سعد ، والهاتفين بحياة سعد ، وسيارته تمشي الهوينا ، تشق
لنفسها طريقا وسط الزحام البالغ ، وهو واقف فيها بقامته المديدة ،
ومنظره المهيب ، يحيي الناس بكلتا يديه ، وتنهمر الدموع من عينيه .
أيقنت انجلترا أن سعدا خطر كبير ، وأنه ملك عليها الأمر ،
وأصبح القائد المسيطر الذي تحقق به خططها ، وتنكشف حيلها ،
ويفسد تدبيرها . وقد كان كذلك ؛ فقد ظل سعد يقرعهم بخطبه
التي لم تكن أقوالا ، بل روحا يملأ النفوس بالعزم والأمل ،
وسياطا تلهب الظهور للعمل ، وقوة عاصفة بالظلم والظالمين .

أرسلت انجلترا إليه تهديدا فقال حين قرأه : « يهددوننا بنصب
المشائق ! ليكن . نحن مستعدون » . ثم أصدر نداء إلى الأمة جاء
فيه : « نفرع إلى اتحادنا فنقويه ، وإلى صفوفنا فنجمعها ، وإلى

قوانا فنوجهها جميعا إلى دفع ذلك الخطر العظيم ، نزرع الشهوات
الدينية من نفوسنا ، ونستل الأحقاد المقبولة من صدورنا ،
وتكون الكلمة سواء بيننا ألا يطيب لنا العيش حتى ينطلق
الوطن السجين ، ويتمتع باستقلاله التام » . وفي آخره يقول :

فلنتق الله بقلوب كلها اطمئنان ، ونفوس ملؤها استبشار بالاستقلال التام ، أو الموت الزؤام » .

عملت انجلترا على نفيه ثانية ، وتوسلت لذلك بأن أرسلت إليه رسالة تحرّم عليه فيها التكلم بالسياسة ، وتمنعه من الانتقال من قريته ، فأجابها بخطاب جاء فيه : « وبما أنى موكل من قبل الأمة للسعى في استقلالها فليس لغيرها سلطة تخلينى من القيام بهذا الواجب المقدس ؛ لهذا سأبقى في مركزى مخلصا لواجبي . وللقوة أن تفعل بنا مآثاء أفرادا وجماعات » . ثم قال لكل من سألوه : « إن هذه مقدمة للنفي الآتى لا محالة » .

وسرعان ما طار الخبر ، فكثر المظاهرات ، وأطلق الرصاص . وأقبل صباح الاعتقال في ديسمبر سنة ١٩٢١ م غائما مطيرا ينذر بالشر . وقبض على سعد . فتقدم ثابت الجنان ، هادئا ، مطمئن النظرات ، وأرادت زوجه مصاحبته ، فرفض الجند ، فتعلقت به ، ولكن سعدا قال لها : « لا تكونى سببا في إهانتى » .

فغادت إلى ثباتها قائلة : « لا عاش من يهينك ياسعد » . وأخذت تهدي الباكين حولها . خرج سعد إلى الجموع الحاشدة ، فشرح فيهم طرفه هادئا مطمئنا ، لا يبالى شيئا ، فضج الجميع بالبكاء صائحين : « إلى أين ؟ إلى أين ياسعد ؟ »

He became old man

كان سعد عجوزاً مصاباً بأمراض كثيرة ، يسير إلى حيث لا يعلم ، ولا يدري أين يلاقى حتفه ^(١) . ومع ذلك قبل التضحية بقلب متملى ثقة وعزماً . وهذا هو المثل الأعلى في عرفان الواجب والبطولة . اعتقل هو وصحبه في سيشل ، ثم نقل منها إلى جبل طارق ، وكانت مدة اعتقاله من ديسمبر سنة ١٩٢١ م إلى مارس سنة ١٩٢٣ م .

وفي هذه الأثناء صدر الدستور ، وأجريت الانتخابات ، ففاز فيها الوفد بأغلبية كبيرة ، فدعى سعد من المنفى إلى الوزارة ، فكان أول رئيس لوزارة دستورية . وكان يلاقى كبار الإنجليز مقابلة الند للند . وأفرج عن المسجونين السياسيين ، وألغى نفقات الاحتلال ، وكان لا يجدد عقود الإنجليز الموظفين إذا انتهت ، ويتصرف في شؤون دولته كأن مصر مستقلة ؛ فمن ذلك رده على تصريح الحكومة الإنجليزية « بأنها لن تترك السودان بأى معنى كان » . قال في رده في مجلسي الشيوخ والنواب :

« إننى بالنيابة عن الشعب المصرى بأجمعه ، أصرح بأن الأمة المصرية لن تتنازل عن السودان ماحييت ، وما عاشت ... إن حقوق الأمم لا تضيع بمجرد أن يقول الغاصب إنى أريد أن

أتمتع بها دون أصحابها... نعم أيها السادة لا يمكننا مطلقاً أن نتنازل
عن السودان ؛ لا لأنه مستعمرة ، بل لأنه جزء من كيانتنا ، بل
لأنه منبع حياتنا ، بل لأنه لا يمكن لمصر أن تعيش بدون
السودان أصلاً .

وقد اعتدى على حياته في ١٢ من يولية سنة ١٩٢٢ حين
كان في محطة العاصمة . رماه فتي غر بطلقة أصابته في غير مقتل .
وكان — رحمه الله — مصاباً بأمراض يضعف معها الأمل في
الشفاء ، ولكن تجلت شجاعته المعهودة في هذا الخطر ؛ فقد كان
يقول للباكين من حوله : « لا تبكوا إذا مات سعد ؛ فبدوؤه باق
لا يموت » . وهذا مثل سام من أمثلة الشجاعة والبطولة في وجه
الخطر المحقق .

وقد أجرى سعد مفاوضات أخرى مع رمزي مكدونالد في
انجلترا ، ولكنها انتهت بالإخفاق أيضاً . ثم كانت فاجعة (السردار) ،
فاستقال سعد بسببها ، بعد أن مكث في الوزارة تسعة شهور . ثم
ولى بعد ذلك رئاسة مجلس النواب ، فكان الرئيس العادل ،
الرحب الصدر ، النزيه في مناقشاته ، البعيد النظر في آرائه ،
وكان يمتاز في مواقفه بمحبة ذكائه ، وسرعة خاطره ، وحلمه ،
ورجاحة عقله .

وقد كان سعد خطيباً يلعب بقلوب سامعيه ، قوى التأثير
بصوته الرقيق ، وطلعته المهيبة ، وبلاغته الساحرة . وكثيراً
ما أبكى سامعيه من متعلمين وفلاحين .

وكان نبيلاً في خصومته ؛ فكثيراً ما مدح خصومه على كثرة
ما ناله منهم من أذى ، وقد بلغه مرة أن بيت أحد خصومه (إبراهيم
الهللأوى بك) سيبيع في المزاد ، فأمر بإرسال مبلغ من ماله لينقذ .
ولكن ذلك الخصم كان قد دبر أمره ، وأنقذ بيته . فلما بلغه
ما عزم عليه سعد شكره كثيراً .

وكان سعد في بيته مثال الزوج الكامل ، يأوى من بيته
إلى مكان الدعة والراحة ، ليقوى على العمل والجهاد ، يكل كل
شئ لزوجته . وقد قيل لها مرة : « أين زوجك ؟ ألا يسمع
له صوت ؟ »

فأجابت : « إن صوته يسمع في كل مكان إلا هذا المكان » .
وكان رحيماً بالخدم والأتباع ، حتى كانوا يتجرءون عليه ،
وهو الذى يهابه العظماء والأمراء . وكان سعد صليبا في الحق ،
صريحاً حكيماً ، داهية في تصرفاته وتديراته ، مناضلاً يحب العمل ،
متديناً يراقب ربه ، ويؤدى فرضه ، وقد اضطلع في شيخوخته
بقضية الأمة ، بعزيمة وصبر لا يقوى عليهما الشباب ؛ لهذا تعلق

به الشعب تعلقا شديدا ، وقدره أصدقاؤه وأعداؤه ، من مصريين
وأجانب .

ولما وافاه الأجل المحتوم في ١٣ من أغسطس سنة ١٩٢٧
ارتاع القطر المصري أجمعه ، وعمه الحزن ؛ كأن كل مصري
فقد أباه وعائلته . ذهب ناع ليلة أن مات إلى مسرح من مسارح
اللهو في القاهرة ، فصاح الجمع : « أيها الإخوان ، البقية في حياتكم .
الباشا مات ! » فصرخت المغنية ، وألقت العود من يدها ،
وولت ، ثم انفص الجمع عن حزن عميق .

ذلكم هو سعد في سيرته الخالدة ، فاقتدوا به في عزيمته
ونزاهته ، وفي نشاطه وإخلاصه ، وفي شجاعته وعظمته ، وأحيوا
ذكره بالافتداء بفضائله ؛ ليكون سعد خالدا فيكم بصفاته الخالدة ،
وأعماله المجيدة . وليكن من كل منكم سعد في تلكم الصفات ،
وهذه الأعمال .

من كلمات الخالدة

من كلمات الخالدة قوله : « أنا لست رئيس حزب ، ولكني
وكيل أمة . قلت ذلك مرارا ، وكررتة تكرارا . قلته عقب
خروجي من منفى . وقلته بعد عودتي منه . وسأقوله دائما ، وأعمل

به . فلا أحابي شخصا لمبدئه السيامي ، ولا أتعرض لآخر
لآرائه السياسية . ولكني أحسن لمن يعمل لمصلحة الوطن ،
وأنكل بمن يسعى إليه . فمن عمل صالحا فلنفسه وللأمة . ومن
عمل بضد ذلك فعليه إثم ماعمل . ولو أكرم ابن سعد لحقت عليه
كلمة العقاب » .

ومن خطبه التي ألقاها

يوم ١٩ من سبتمبر سنة ١٩٢٣

يدعو إلى الاتحاد

« طلب مني بعض خطبائكم أن ألقى كلمة لتكون بردا
وسلاما على قلوبكم . والكلمة التي جاشت في صدري عقب
هذه الدعوة هي أن أرجوكم ، وأرجو كل مصري ، أن يحافظ على
أمر واحد هو فخار نهضتنا الحاضرة ؛ ذلك الأمر هو الاتحاد المقدس .
لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم . لا أقول
ذلك ولا أدعيه ، بل لا أتصوره ، إنما نهضتكم قديمة ، تبتدى من
عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد علي . وللحركة العرابية فضل
عظيم فيها ، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغاني وأتباعه وتلاميذه
أثر كبير ، والمرحوم مصطفى كامل باشا فضل عزيز فيها أيضا ،
وكذلك المرحوم محمد فريد بك .

كل هذا حق ، ويجب علينا الانكسار ، لأنه لا يكتفى الحق
إلا الضعيف . ثم أتت هذه النهضة على أثر تلك النهضة ،
وامتازت على سابقتها بأن أوجدت هذا الاتحاد المقدس بين
الصليب والهلل ؛ هذا الاتحاد الذي أرجو مصر جميعها الالتهاون
فيه ؛ فإنه فخر هذه النهضة ، وهو عمادها . وهو الذي اضطر له
خصومنا إذ أسقط من أيديهم حجة كانوا يعتمدون عليها ، كما
أردنا تحرير رقابنا من النير الذي وضعوه في أعناقنا . يقول خصومنا
إننا حماة الأقلية فيكم ؛ لأنكم قوم متعصبون ، فلا بد من أن نبقى
بينكم لنحفظ العدل فيكم !! هذه الحجة سقطت باتحادكم ،
ولكنهم الآن انتهزوا فرصة الانتخاب ، ليثبوا الانقسام فيكم ،
فاحذروا هذه الدسيسة ، واعلموا أنه ليس هناك أقباط ومسلمون .
ليس هناك إلا مصريون فقط . ومن يسمونهم أقباطا كانوا
ولا يزالون أنصاراً لهذه النهضة ، وقد ضحوا كما ضحيتكم ، وعملوا
كما عملتم . وبينهم أفاضل كثيرون يمكن الاعتماد عليهم . فأحسوا
التراب في وجوه أولئك الدسامين الذين يفرقون بين مصريين
ومصريين ، أن لا امتياز لواحد على آخر إلا بالإخلاص والكفاية .
فيهم إحساسنا ، وفيهم من هو أفضل من كثير منا . أقول
هذا لأني أقول الحق . ويجب على زعيمكم أن يقول الحق .

لقد برهنوا في مواطن كثيرة على إخلاص شديد ، وكفاءة نادرة ، وأفتخر (أنا الذي شرفتموني بدعوتي زعيمكم) بأني أعتمد على كثير منهم ، فكلمتي ووصيتي فيكم أن تحافظوا على هذا الاتحاد المقدس ، وأن تعرفوا أن خصومكم يتميزون غيظا كلما وجدوا هذا الاتحاد متينا فيكم . ولولا وطنية في الأقباط ، وإخلاص شديد ، لتقبلوا دعوة الأجنبي لحمايتهم ، وكانوا يفوزون بالجاء والمناصب ، بدل النفي والسجن والاعتقال ، ولكنهم فضلوا أن يكونوا مصريين معذبين ، محرومين المناصب والجاء والمصالح ، يسامون الخسف ، ويدوقون الموت والظلم ، على أن يكونوا محميين بأعدائهم وأعدائكم .

هذه المزية يجب علينا أن نحفظها ، وأن نبقيها دائماً في صدورنا ، وإني أفتخر كل الافتخار كلما رأيتم متحدين متساندين . حافظوا على اتحادكم . وهناك افتخار آخر لهذه النهضة ، وهو التفاف الأمة نحو شخصي الضعيف .

تعودتم طاعتي ، وأنا لم أكن أميراً فيكم . ولا أنا من بيت كبير ، بل أنا فلاح ابن فلاح ، من بيت صغير ، يقول عليه خصومنا إنه حقير . ونعمت الحقارة هذه . ولم أكن غنياً ليكون التفافكم حولي طمعاً في مال ، ولا أنا ذو جاه أوزع الجاه على من

يطمع فيه ، ولكنكم التفقتم حولي ، فدللتكم بذلك على أنكم لا تطلبون مالا ولا جاها ، بل السجن في بعض الأوقات .
أنتم أمة تلتف حول رجل لا مال عنده ولا جاه ، ولا جمال أيضا . حقيقة إن كل ما يستهوى الناس عادة مفقود عندي . أنا مقر بذلك . وأنا أوكد لكم ، وأقسم بالله وبصفاته أني ما تخيلت حتى في منامي أن شخصي الضعيف موضوع تلك الحفاوة ، ولكني أعتقد أن في الأمة شعورا شعبيا ، ونورا إلهيا ، هداها إلى شيء في شخصي الضعيف ، هو أني متمسك بمبادئها .

قالوا — وما أكثر ما قالوا — قالوا إنكم قوم تعبدون الأشخاص (يعني ما شفتوش إلا أنا ؟) لم لم تعبدوا غيري ؟ هذا كلام فارغ لا يستحق مني الرد . وهذا هو الدليل على أن نهضتكم حقيقة . تعبت مع صبي الخالصين . وهنا اسمحو لي أن استطرد عند أولئك الصاحب .

تعبت ولكن صحبتهم أنستني آلام النفي ؛ لأنهم كانوا حقيقة أبناء بررة ، شعرت بحبهم ، وأنسوني كل ما كان يمكن أن أحس به في سجنى وغربتى . ولولا قصر الوقت لشرحت لكم جميل عنايتهم بي . يقينا كنت أتقوى في عزيمتي بهم . وإني أشكرهم على هذه التقوية . أنسوني آلاما كثيرة ، ووجدت فيهم

عوضا كبيرا . شكرتهم بسرى هناك . وهنا أشكرهم علنا أمام
الامة جميعا .

نفينا فماذا حصل ؟ . حل محلنا آخرون ، فكان لهم من الامة
نفس الاحترام الذى كان لنا ؛ لأنهم حلوا فى المكان الذى
عهدت فيه الامة بالإخلاص . حلوا فيه ولم يكن أمامهم إلا السجن
والنفى والإثم ، ودل ذلك على أن الامة جميعها مستعدة . إذا غاب
منها سيد قام سيد .

جاء هؤلاء الخلق ، ونابوا عنا أحسن نيابة ، وعذبوا وأهينوا ،
ولكنهم صبروا حتى حكم عليهم بالإعدام ، فتقبلوه بوجوه باسمه
هاتفين لمصر ، وللاستقلال التام . وعندما أخذوا قام من خلفهم ،
وسار سيرهم ، فكان ما كان لهم من احترام وسجن واعتقال ، ثم
خلفهم أسياد آخرون ، قاموا بعبئهم خير قيام . فتوالى قيام الأبطال
مكان الأبطال ، والسجن يفتح أبوابه لكل حر ، ولكل عامل
للحرية . وهذا دليل على تأصل النهضة فيكم ، وأنكم حقيقة
مستعدون لأن تضحوا بكل شئ فى سبيل استقلال بلادكم ، وأن
نهضتكم حقيقية ، وأنكم تمجدون الأشخاص الذين يتمسكون
بمبادئكم مهما يكونوا . وكنت وأنا فى منفى عندما أرى هذه
الوثبات أقول : لقد تمت مأموريتى . واستقلت البلاد .

من خطبته التي ألقيت في حفلة الطلبة

يوم الجمعة ٧ من ديسمبر سنة ١٩٢٣

سادتي . إخواني . أبنائي .

أهديكم فائق شكرى على إقامتكم هذا الاحتفال العظيم
تكريما لعودتي . وكنتم آخرتموه لانحراف ألم بي . وأحمد الله
تعالى أن سجانى الجدد ، وهم ضباط صحتي ، لم يحاولوا أن يمنعوني
هذه المرة من الخروج إلى هذا الاجتماع وشهوده ؛ لأنهم يعلمون
أنه اجتماع الشباب ، والشباب ينشر على من حوله أشعة من
الحرارة ، تكسب الجسم قوة ، وتفيد الصحة اعتدالا .

وفي الحق أنى أشعر كلما رأيتم بديب من القوة يدب في
جسمي ، وبدافق من السرور يصب في قابي . وأتخيل كأني عدت
إلى الصبا . وعادت إلى صدرى حماسته . فأستسهل كل صعب ،
وأستهين بكل خطب . وأبى كل صوت يدعو إلى التقدم
والارتقاء .

إن الشباب هو تلك الحلقة الذهبية التي تربط المستقبل
بالماضى ، وكل ما يصدر عنه محبب إلى النفس ، والنفس منجذبة
إليه ؛ لأنه يصدر عن إخلاص في نضارة ، وعن كرم في طهارة .

إنه ربيع هذه الأمة ، وهو قوتها العاملة ، وأملها الصادق . وبه
صرخت صرختها فدوت في الخافقين ، وقامت قومتها فلقت
أنظار العالمين . ومنه استمدت قوتها فثبتت للخطوب وقد ادلهمت .
وصبرت على المصائب وقد أملت . وجاهدت جهاد الأبطال في
سبيل استقلالها ، مصممة ألا تعدل عن سعيها ، حتى تنال ما أملت
أو يكون الموت خيرا لها . نعم صممت هذا التصميم الجازم بقوتكم ،
وثبتت هذا الثبات الدائم بمعونتكم . فسعيد من يراكم ويفهمكم .
سعيد لأنه يرى فيكم أكبر سلاوة ، وأقوى عدة أعدتها الأمة
لتحقيق أمانها .

إننا (أعني الشيوخ) نطل من عيونكم اللامعة على المستقبل
الذي لا نشك في أنه سيكون بعناية الله مستقبلا زاهرا . ورى
فيكم خير كفيل بإتمام العمل الذي ابتدأ ، وإنجاح المساعي التي
بذلت لكسب القضية الكبرى . لذلك أحيي فيكم زملاء أشداء ،
وإخوانا في النهضة الوطنية ، وأنحنى احتراما أمامكم ، بصفتكم
أمناء شرفنا ، وحفظة استقلالنا في الأيام الآتية ، وسيكون بين
أيديكم مصير مصر الحرة . نعم سيكون هذا المصير بين أيديكم ،
فياله من مجد وفخر . وياله من مسئولية هائلة !
لا تنسوا أيها الأبناء أنكم من أمة قد أعلن على التعليم

والتهذيب فيها حرب نظامية أكثر من أربعين عاما . واذكروا دائما أنكم بفضل ما امتزتم به على غيركم من العلم والتهذيب زاد عبء الواجب عليكم نحو الشعب المصرى الذى تنتسبون إليه . فاستعدوا إذا للقيام بهذا الواجب الذى ينتظركم ؛ لتؤدوه على أطيب الوجوه وأكملها . واذكروا جيدا أن لا نهوض لأمة ولا سعادة لشعب إلا بالعلم والأخلاق الفاضلة . فانشدوا الشكال العقلى والخلقى ، وتيقنوا أن القوة الغشوم إذا انتصرت على الحق زمانا فإن قوة النفس المهذبة العالمة ، والإرادة المرتكزة على الحق تنتهى على الدوام بالنصر والفوز الباهر ؛ لأنها أقوى من كل إرادة .

سر عظمة الأمم يا بنى هو ذكاء أبنائها وعلمهم ، وثباتهم على الجد والعمل ، فضعوا هذه الحقيقة أمام أعينكم . وليعمل كل منكم على أنه جندى فى جيش إنقاذ الوطن . وليقل فى نفسه إني أعمل لهذه الغاية ، وأجد فى عملى ، وأستمر فى إخلاصى ؛ لأنه يتوقف على عملى واجتهادى واهتمامى بالشئون العامة وإخلاصى لها — سلامة البلاد وعظمتها وسعادتها . إذا فعلتم ذلك — ولا بدأ أنكم فاعلوه — يبدو الواجب أمامكم واضحاً جلياً ، وتسهل الصعاب فى طريقكم ، ويتغلب مجهودكم على ما يعترضكم من العقبات ، وتكفل مساعيكم

بالنجاح ، وتبارك لكم أمكم مصر في أعمالكم وأعماركم ومستقبل أيامكم .

قال (رينان) لجمع من الشبان مثل جمعكم : « إن كل شئ من حولكم سيمتحول ويتغير . وربما تشهدون تغييرات أعظم من التي جاء بها التاريخ الإنسانى لغاية الآن . ولكن ما لا شك فيه هو أنكم ستلاقون في كل أدوار الحياة التي تمررون بها خيرا لأن يعمل ، وحقيقة لأن تبحث ، ووطنا لأن يحب وأن يخدم » . أيها الأبناء ، هذه نصائح ألقها عليكم ، لا لأنى أشعر بأنها مجهولة لديكم ، ولكنى ألقها لأنى شيخ ، والشيوخ يحبون عادة إسداء النصيح للشبان . وقد يكون منشأ هذا الحب هو رغبتهم في أن يثبتوا أن حياتهم الماضية لم تكن حياة ضائعة ، وأن وعاء تجاربهم قد امتلأ بالحكمة وفاض بالعبر .

لست في حاجة إلى أن أرجع بكم إلى الورا خمس سنوات ، أيام كان يتساقط تحت الرصاص من بينكم إخوان لكم ألقوا بأنفسهم إلى الموت ، وهو فاعر فاه . ألقوها بشجاعة نادرة ؛ ليضربوا لمن بعدهم من الأجيال أحسن الأمثال في التضحية . لا حاجة إلى ذلك ، وما على الباحث إلا أن ينظر إلى سير الحوادث الأخيرة ، ليرى بجانب آثار الشجاعة والإقدام علامات كثيرة

من الصفات الفاضلة (من حسن البصيرة ، وحكمة الشيوخ في نشاط الشباب) .

رثاء سعد زغلول

وانذ كر هنا شيئاً مما رثى به الشعراء سعد زغلول : فخطه

من فصيرة لتوفى بك في رثاء الزعيم :

شيعوا الشمسَ ومالوا بضحاها

وانحنى الشرقُ عليها فبكها

جَلَلٌ^(١) الصبحَ سواداً يومها

فكأنَّ الأرضَ لم تخْلَعْ دُجَاهَا

جاءها الحقُّ^(٢) ومن عادتها

تؤثرُ الحقُّ^(٣) سبيلاً وانجأها

ما دَرَتْ مصرُ بـدُفْنِ صُبَّتْ

أُمٌّ عَلَى البعثِ أفاقت من كراها

(١) كساء وغطى ضوءه . (٢) يقصد به الموت .

(٣) يقصد به العدل .

صَرَخَتْ تَحْسِبُهَا بِنْتَ الشَّرِّ (١)
 طَلَبْتُ مِنْ مِخْلَبِ الْمَوْتِ أَبَاهَا
 وَكَأَنَّ النَّاسَ لَهَا نَسَلُوا
 شَعْبُ السَّيْلِ طَفَتْ فِي مُلْتَقَاهَا
 خَفَضُوا فِي يَوْمِ سَعْدٍ هَامَهُمْ
 وَبِسَعْدٍ رَفَعُوا أَمْسِ الْجِبَاهَا

يَا عَدُوَّ الْقَيْدِ لَمْ يَلْمَخْ لَهُ
 شَبَحًا فِي خَطِّهِ إِلَّا أَبَاهَا
 حَضَنْتُ نَعَشَكَ وَالتَفْتُ بِهِ
 رَايَةً كُنْتُ مِنَ الذِّلِّ فِدَاهَا
 عَجَبِي مِنْهَا وَمِنْ قَائِدِهَا
 كَيْفَ يَحْمِي الْأَعْزَلَ الشَّيْخُ حِمَاهَا
 طَافَتْ الْكَأْسُ بِسَاقِي أُمَّةٍ
 مِنْ رَحِيقِ الْوَطَنِيَّاتِ سَقَاهَا
 عَطَلَتْ آذَانَهَا مِنْ وَتْرِ
 سَاحِرٍ رَنَّ مَلِيًّا فَشَجَّاهَا

(١) بنت الشَّرِّ : أُنثَى الْأَسَدِ .

أُرْغُنْ هَامَ بِهِ وَجِدَانُهَا
وَأَذَانُ عَشِيقَتِهِ أَذُنَاها

تَسْكُبُ الدَّمْعَ عَلَى سَعْدٍ دَمًا
أُمَّةً مِنْ صَخْرَةِ الْحَقِّ بَنَاهَا
لَقْنِ الْحَقِّ عَلَيْهِ كَهْلُهَا

وَاسْتَقَى الْإِيمَانَ بِالْحَقِّ فَتَاهَا
ابْنُ سَبْعِينَ تَلَقَّى دُونَهَا
غُرْبَةَ الْأَسْرِ وَوَعْثَاءَ^(١) نَوَاهَا
قَاهِرٌ أَلْقَى بِهِ فِي صَخْرَةٍ
دَفَعَ النَّسْرَ إِلَيْهَا فَأَوَاهَا
كَرِهَتْ مَنَازِلَهَا فِي تَاجِجِهِ
دُرَّةً فِي الْبَحْرِ وَالْبَرِّ نَفَاهَا
اسْأَلُوهَا واسألوا شَانِهَا

لَمْ يَلَمْ يَنْفِ مِنَ الدَّرِّ سِوَاهَا

(١) الوعْثاء : الطريق العسر أو المشقة .

وَلَدَ الثَّوْرَةَ سَعْدٌ حُرَّةً
بِحَيَاتِي مَاجِدٍ حُرِّيٍّ نَمَاهَا
مَا تَمَنَّى غَيْرَهَا نَسْلًا وَمَنْ

يَلِدُ الزَّهْرَاءَ يَزْهَدُ فِي سِوَاهَا
بَارِكِ اللَّهُ لَهَا فِي فَرْعِهَا
وَقَضَى الْخَيْرَ لِمَصْرِ فِي جَنَاهَا

مِنْ فَصِيحَةٍ مَافِظَ اِبْرَاهِيمَ بَكَ فِي رِثَاءِ سَعْدٍ بَاسًا :
إِيهَ يَا لَيْلُ هَلْ شَهِدْتَ لِلْمُصَابَا
كَيْفَ يَنْصَبُّ فِي النُّفُوسِ انْصِبَابًا ؟
وَأَنَعَ لِلنَّيِّرَاتِ سَعْدًا فَسَعْدُ
كَانَ أَمْضَى فِي الْأَرْضِ مِنْهَا شِهَابًا
أَيْنَ سَعْدُ ؟ فَذَاكَ أَوَّلُ حَقْلٍ

غَابَ عَنِ صَدْرِهِ وَعَافَ^(١) الْخِطَابَا
لَمْ يُعَوِّذْ جُنُودَهُ يَوْمَ خَطْبِ
أَنْ يُنَادِيَ فَلَا يَرُدُّ الْجَوَابَا

(١) عَافَ الشَّيْءَ : كَرِهَهُ وَزَهَدَ فِيهِ . وَلَمْ يَلِدْ : (٢)

أنى جنودَ الرئيسِ نادُوا جِهَاراً
فإذا لمْ يُجِبْ فشقُّوا الثيابا
خَرَجَتْ أُمَّةٌ تُشِيعُ نَعْشاً
قد حَوَى أُمَّةٌ وَبِحراً عُبَاباً
حَمَلُوهُ عَلَى الْمَدَافِعِ لَمَّا
أَعْجَزَ الْهَامُ حَمْلَهُ وَالرَّقَابَا
خَالَ لَوْنُ الْأَصِيلِ وَالدَّمْعُ يَجْرِي
شَفَقاً سَائِلاً وَصُبْحاً^(١) مُذَاباً

يا كبيرَ الفؤادِ والنفسِ والآ
مالِ أينَ اعْتَزَمْتَ عَنَّا الذَّهَابَا ؟
كَيْفَ نَنْسَى مَوَاقِفَا لَكَ فِينَا

كُنْتَ فِيهَا الْمَهِيْبَ لَا الْهَيَّابَا

(١) يقول : إن لون الأصيل قد غيرته الدموع التي كانت تمرى
دما ، فكانت كأنها شفق سائل ، أو أصبح مذاب ؛ وفي لون الشفق
والصبح حمرة وصفرة تشبهان حمرة الدم وصفرته .

كنت في مِيعَةٍ^(١) الشبابِ حُسَامًا
زادَ صَقْلًا^(٢) فِرْنْدُهُ^(٣) حينَ شابا

لَيْتَ سَعْدًا أَقَامَ حَتَّى يَرَانَا
كَيْفَ نُعَلِي عَلَى الْأَسَاسِ الْقَبَابَا
قَدْ كَشَفْنَا بَهْدِيهِ كُلَّ خَافٍ
وَحَسِبْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ حِسَابَا
حُجْجُ الْمُبِطِلِينَ تَمْضَى سِرَاعَا
مِثْمَا تُطْلِعُ الْكُؤُوسُ الْحَبَابَا
حِينَ قَالَ (انْتَهَيْتُ)^(٤) قُلْنَا بَدَأْنَا
نَحْمِلُ الْعِيبَ وَحَدَّنَا وَالصَّعَابَا
فَاحْجُبُوا الشَّمْسَ وَاحْبِسُوا الرُّوحَ^(٥) عَنَا
وَامْنَعُونَا طَعَامَنَا وَالشَّرَابَا

(١) أوله .

(٢) فرند السيف : وشيه وجوهره .

(٣) حين حضرت سعد الوفاة ، سئل : كيف أنت ؟ فقال : « أنا

انتهيت » ، وإلى هذا يشير الشاعر .

(٤) الروح : نسيم الريح .

قد مَلَكْتُمْ فَمَ السَّيْلِ عَلَيْنَا
 وَفَتَحْتُمْ لِكُلِّ شَعْوَاءٍ^(١) بَاباً
 وَأَتَيْتُمْ بِالْحَائِمَاتِ^(٢) تَرَامِي
 تَحْمِلُ الْمَوْتَ جَائِئاً وَالْخُرَابَا
 وَمَلَأْتُمْ جَوَانِبَ النِّيلِ وَعُدّاً
 وَوَعِيداً وَرَحْمَةً وَعَذَاباً
 هَلْ ظَنَرْتُمْ مِنَّا بِقَلْبِ أَبِي
 أَوْ رَأَيْتُمْ مِنَّا إِلَيْكُمْ مَثَاباً^(٣)
 لَا تَقُولُوا خَلَا الْعَرِينُ فَقِيه
 أَلْفُ لَيْثٍ إِذَا الْعَرِينُ أَهَاباً^(٤)
 وَمَنْ فَصْبِرَ الْأَسَدَ عَلَى الْجَارِمِ بَكَ فِي رَمَاءِ سَعْدِ بَابَا :
 لَا الدَّمْعُ غَاضَ وَلَا فَوَادُكَ سَالَى
 دَخَلَ الْحِمَامُ عَرِينَةَ الرَّثْبَالِ^(٥)

-
- (١) الفارة المنتشرة . (٢) الطائرات .
 (٣) المثاب : الرجوع . يقول : لأنكم بالغتم في تعذيبنا ، فهل
 استطعتم أن تملوا إليكم قلباً ألباً من قلوبنا ، أو أن تجدوا منا استسلاماً لكم .
 (٤) العرين : بيت الأسد ومأواه . وأهاب : دعا .
 (٥) غاض : جفّ وذهب . والحمام : الموت . وعرينة الرثبال :
 مأوى الأسد .

وَأَصَابَ فِي الْمِيدَانِ فَارِسَ أُمَةٍ
 رَفَعَ الْكِتَانَةَ بَعْدَ طَوْلِ نِضَالٍ ^(١)
 مَا كَانَ سَعْدُ آيَةٍ فِي جَيْلِهِ
 سَعْدُ الْخَلْدِ آيَةُ الْأَجْيَالِ ^(٢)
 كَتَبَ الْكُتَاتِبَ حَوْلَ مِصْرَ سِلَاحُهَا
 صَبْرُ الْكَرِيمِ، وَهَمَّةُ الْفَعَالِ ^(٣)
 فَكَانَهُ سَيْفُ الْمُهَيْمِنِ خَالِدٌ
 وَكَانَ دَعْوَتَهُ أَذَانُ بِلَالٍ ^(٤)
 بَزْدَادُ فِي عَصْفِ الشَّدَائِدِ قُوَّةٌ
 وَيَجُولُ حِينَ يَضِيقُ كُلُّ مَجَالٍ
 كَالشَّعْلَةِ الْحُمْرَاءِ لَوْ نَكَّسْتَهَا
 لَأَضَفْتَ إِشْعَالًا إِلَى إِشْعَالٍ ^(٥)

-
- (١) الكِتَانَةُ : مصر . والنِضَالُ : الجهاد والكفاح .
 (٢) الآيَةُ : المعجزة . والأَجْيَالُ : جمع جبل وهم أهل الزمان الواحد .
 (٣) كَتَبَ الْكُتَاتِبَ : جمع الجيوش . وَهَمَّةُ الْفَعَالِ : الهمة الوثابة .
 (٤) الْمُهَيْمِنُ : من أسماء الله تعالى . وَخَالِدٌ : هو خالد بن الوليد .
 (٥) الشَّعْلَةُ الْحُمْرَاءُ : المتقدة المتوهجة . نَكَّسْتُهَا : قلتها رأساً
 على عقب .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

والسبلُ إن أحكمت سدَّ طريقه
 دكَّ الحصونَ فعُدنَ كالأطلالِ (١)
 إن قامَ بخطبُ قلتَ حيدرةُ انبرى

للقولِ في سمتٍ وصدقٍ مقالِ (٢)
 يختارُ من آيِ الكلامِ جواهرًا
 دُرُّ البلاغةِ كاسمينَّ غوالي
 فإذا أثيرَ رأيتَ (بركانًا) رميَ
 حُمًا ، ودكَّ الأرضَ بالزَّزالِ (٣)
 مُتَمَرًّا كالليثِ ديسَ عرينه
 مُتَوَثِّبًا يدعو الرجالَ نزالِ (٤)
 نفسُ كَأَنفَاسِ الملائكِ طَهَّرَتْ
 وشمائلُ أحلى من السَّلسالِ (٥)

-
- (١) دك الحصون : هدمها . الأطلال : آثار الدار بعد تهدمها .
 (٢) حيدرة : الأسد ، وهو لقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
 كرم الله وجهه . في سمت : أي في حسن هيئة ووقار .
 (٣) أثير : استفز وهيج . والحُم : ما يقذف به البركان من
 المواد الملتهبة .
 (٤) متمرأ : عابسا . عرين الأسد : مأواه . متوثبا : واثبا .
 نزال : اسم فعل أمر بمعنى : انزل .
 (٥) الشمائل : الطباع . والسلسال : الماء العذب .

وعقيدة لو هُزَّتِ الأجيالُ مِنْ
ذُعُرٍ لَمَّا اهْتَزَّتْ مَعَ الأجيالِ

سيروا على سَنَنِ الزعيمِ فَإِنَّهُ
سَنَنُ الْهُدَى وَجَلَائِلِ الْأَعْمَالِ (١)

قَدْ خَطَّ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَجِهَادِهِ
لِلْفِتْيَةِ السَّارِينَ خَيْرَ مِثَالِ

إِنْ كَانَ لَمْ يَنْجُلْ فَإِنَّ لَهُ بِكُمْ
عَدَدَ النُّجُومِ الزَّهْرِ مِنْ أَنْجَالِ (٢)

لَا تَيَاسُوا فَلَكُمْ أُبَيِّدَتْ قَبْلَكُمْ
أُمَّمٌ بَيَّاسٍ قَاتِلٍ وَمَلَالِ

إِنَّ الشُّعُوبَ تُصَابُ فِي أَبْطَالِهَا
وَحَيَاتُهَا فِي بَسِيرَةِ الْأَبْطَالِ

(٣) السَّنَنُ : الطريق .

(٤) لم ينجل : لم يعقب ولدا . الزَّهْرُ : الثلاثة المشرقة .

سعدٌ حياةً في المماتِ ، وقبرُهُ

مهْدُ الجهادِ ومَجْدُ الاستقبالِ

أحرى بمن وهبَ الحياةَ لقومه

ألاَّ تُمنَّ حياته بزوالِ

انتهى والحمد لله

فهرس الكتاب

صلاح الدين الأيوبي

الصفحة	الموضوع
٦	صلاح الدين الأيوبي
٦	مقدمة
٧	نشأته
٨	عمه أسد الدين شيركوه
٩	تقرب صلاح الدين من الشعب المصري
١١	صلاح الدين يحكم البلاد
١٢	نفيكه في محاربة الصليبيين بيت المقدس
١٣	صلاح الدين والشيخ المسيحي
١٥	إسلام الفتاة الفرنسية وأخوها
١٧	صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد
٢٤	انتصار صلاح الدين
٢٥	عودته إلى القاهرة
٢٥	اتساع مملكته
٢٦	وفاته

محمد فريد

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٢٧
محمد فريد الطالب	٢٨
محمد فريد الموظف	٣١
لماذا استقال محمد فريد؟	٣٤
رسالة محمود أبو النصر بك إلى محمد فريد	٣٥
محمد فريد المحامي	٣٦
شفقه بحب بلاده	٣٨
محمد فريد الزعيم	٤٣
المقالة الأولى لمحمد فريد	٤٦
عهد الكفاح المر	٤٨
محاكمة الشيخ عبد العزيز جاويش	٤٨
الشيخ عبد العزيز جاويش بك	٤٩
مدارس الشعب الليلية	٥١
علموا الأمة	٥٥
نشر التعليم الابتدائي	٥٦
الإصلاح الاجتماعي	٥٨

الموضوع	الصفحة
الإصلاح الاقتصادي	٦٢
الفلاح	٦٣
ماذا يؤرقني ؟	٦٥
الدستور — الصحافة — الجلاء	٦٦
حبس الزعيم محمد فريد	٦٧
درس في الوطنية	٦٨
تأثير الشعر في تربية الأمم	٦٩
رسالة من كريمته إليه وهو في أوروبا	٧٥
إلى الرئيس في سجنه	٧٥
محمد فريد في السجن	٧٦
من سجن إلى سجن	٧٨
المؤتمر الوطني	٨١
محاكمة محمد فريد للمرة الثانية	٨٣
الهجرة	٨٣
الماخرة تسير	٨٩
في مؤتمر السلام بجنيف	٩٢
خطبة محمد فريد	٩٥
صدى هذا المؤتمر العالمي	٩٨
تهنئة فريد بك	٩٩

الموضوع	الصفحة
الجزء	١٠١
أثر فريد بك في الحياة النيابية بمصر	١٠٢
النادى المصرى بلندن	١٠٤
في فرنسا	١٠٨
في أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨	١٠٩
إلى المؤتمر الدولى الاشتراكى فى برن ١٩١٩	١١٧
الرسالة الأخيرة لمحمد فريد	١١٨
مرضه ووفاته	١٢١
أيها الراقد فى غير أرضه	١٢١
كلمة الشيخ عبد العزيز جاويش أمام جثة الفقيد	١٢٣
أين قبر فريد ؟	١٢٥
كيف جرى بنعش الفقيد من برلين ؟	١٢٥
قصيدة حافظ إبراهيم فى رثاء محمد فريد	١٢٦
قصيدة شوقي بك فى ذكره الخامسة سنة ١٩٢٤	١٢٧
قلب مصر يخفق	١٢٨
٧٥١	٧٥١
٨٥١	٨٥١
٩٥١	٩٥١
١٠٥١	١٠٥١

سعد زغلول

الموضوع	الصفحة
سعد زغلول	١٣٥
طفولته	١٣٥
وفاة والده وهو في السادسة من عمره	١٣٦
اعتقاله في ثورة عمراني باشا	١٣٧
توجه	١٣٧
خطبته في نقابة المحامين وهو وزير	١٣٨
اختياره وزيراً للمعارف سنة ١٩٠٦	١٣٩
اختياره وزيراً للحقانية سنة ١٩١٠	١٤١
سعد في الجمعية التشريعية	١٤٢
مقابلته مع بعض العظماء للعميد البريطاني	١٤٢
القبض على سعد ونفيه مع صحبه إلى مالطة	١٤٤
سفره إلى أوروبا بعد الإفراج عنه	١٤٥
نفيه إلى جزيرة سيشل	١٤٧
نقله من سيشل إلى جبل طارق	١٤٨
الاعتداء على حياته ونجاته	١٤٩
مفاوضاته مع المستر رمزي مكدونالد	١٤٩

الصفحة	الموضوع
١٥٠	أخلاقه
١٥١	وفاته
١٥١	من كلماته الخالدة
١٥٢	من خطبة له يدعو إلى الاتحاد
١٥٧	من خطبة له في حفلة الطلبة
١٦١	رثاء شوقي بك لسعد
١٦٤	من قصيدة حافظ إبراهيم في رثاء سعد
١٦٧	من قصيدة للأستاذ علي الجارم بك في رثائه

٧ — رثاء سعد (في رثاء سعد) — رثاء سعد

٨ — رثاء سعد (في رثاء سعد) — رثاء سعد

٩ — رثاء سعد (في رثاء سعد) — رثاء سعد

١٠ — رثاء سعد (في رثاء سعد) — رثاء سعد

١١ — رثاء سعد (في رثاء سعد) — رثاء سعد

١٢ — رثاء سعد (في رثاء سعد) — رثاء سعد

١٣ — رثاء سعد (في رثاء سعد) — رثاء سعد

١٤ — رثاء سعد (في رثاء سعد) — رثاء سعد

١٥ — رثاء سعد (في رثاء سعد) — رثاء سعد

١٦ — رثاء سعد (في رثاء سعد) — رثاء سعد

١٧ — رثاء سعد (في رثاء سعد) — رثاء سعد

11387486X

B12505948

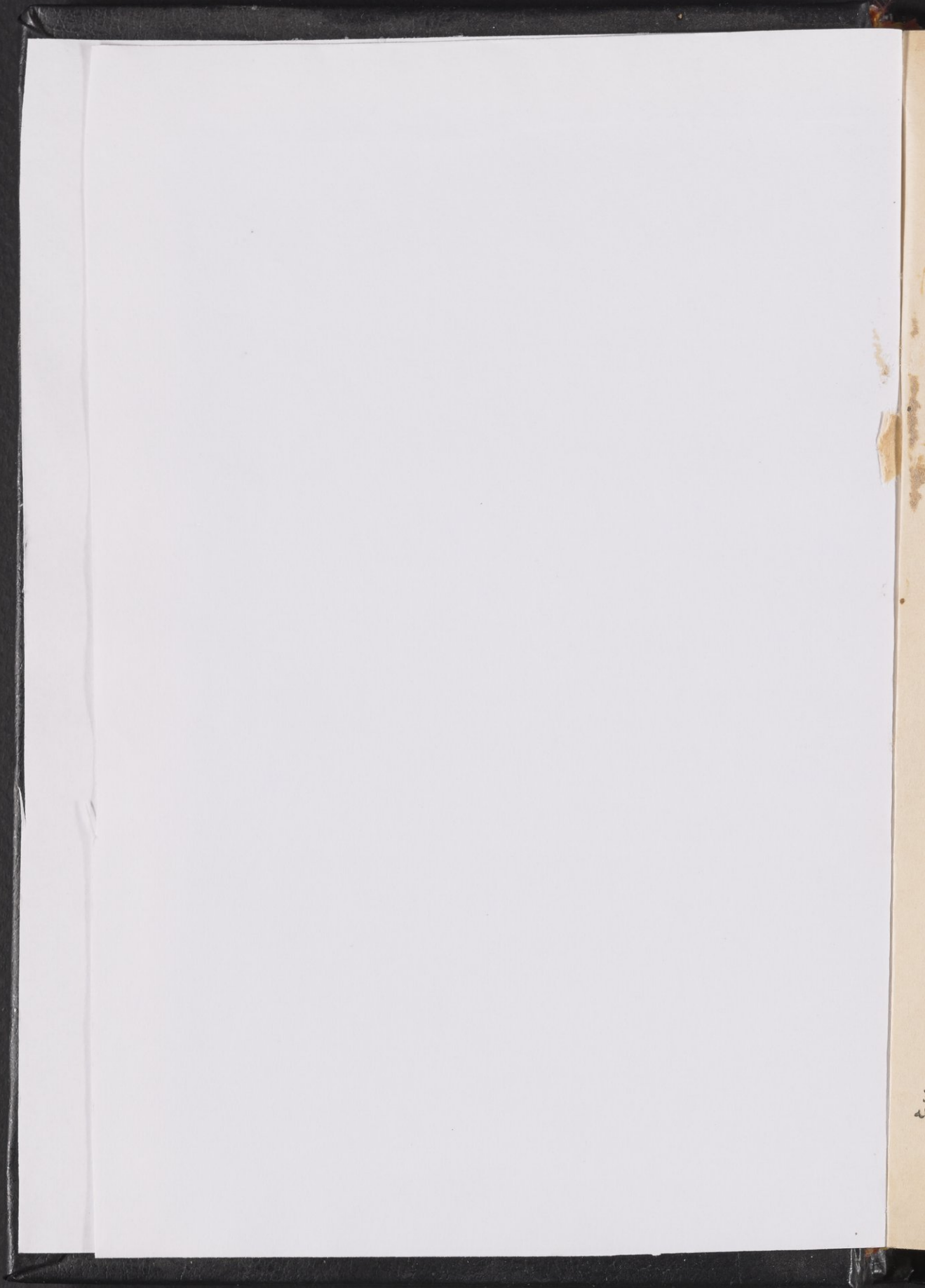
كتب اللجنة

أصدرت اللجنة في هذه الفترة - عدا الكتب المدرسية -

الكتب الآتية

- ١ - يسألونك : للأستاذ عباس محمود العقاد
- ٢ - أثر الشرق في الغرب : للدكتور فؤاد حسابين
- ٣ - قصة الكهرباء واللاسلكي : للأستاذ محمد عاطف البرقوقي
- ٤ - مشكلاتنا الاجتماعية : للأستاذ محمد عطية الإبراشي
- ٥ - الحبشة : للأستاذ حسن محمد جوهر
- ٦ - الغزل عند العرب : للأستاذ حسان أبو رحاب
- ٧ - عائشة أم المؤمنين : للأنسة زاهية قدورة
- ٧ - أحاديث الصباح (في المذيع) للشيخين : محمود شلتوت ،
ومحمد المدني

- ٩ - الفلسفة القرآنية : للأستاذ عباس محمود العقاد
- ١٠ - اللعب والعمل : للدكتور علي عبد الواحد وافي
- ١١ - من كل نبع قطرة : للأستاذ حسن محمد جوهر
- ١٢ - أبو العتاهية : للأستاذ محمد أحمد برانق
- ١٣ - أبطال الشرق : للأستاذ محمد عطية الإبراشي
- ١٤ - صرخة في واد : للأستاذ محمود غنيم
- ١٥ - الراهبة المتوحشة قصة حشرة للدكتور عباس إبراهيم حسن
- ١٦ - ولادة : للأستاذ علي عبد العظيم
- ١٧ - المهد الذهبي : للأستاذين وهبي إسماعيل حقي ، وإبراهيم خير الله
- ١٨ - عبد الله بن قيس الرقيات : للأستاذ علي النجدي ناصف



AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO



DT
76
.I3
1947